

اعتراف توماس وفلسفته

بقلم

الدكتور محمد ريت الطوحيش بشر

صاحب مجلة الخالدات



عني بنشره وتصحيحه

شيخ يوسف توما البستاني

صاحب مكتبة العرب

بالحق لا بمقتضى



١٩٣٠

مطبعة العرب
بدمشق

مطبوعات عصرية قيّمة

تطلب من مكتبة العرب لصاحبها الشيخ يوسف توما البستاني بالفجال وهي كتب أدبية فنية مختلفة جديدة بكل أديب أن لا تخلو مكتبته من

٥	كتاب المواكب بالرسوم لجبران خليل جبران	٣	صيد النساء ابن الفرساوي لا نندرو
١٥	كتاب البدائع والطرائف لجبران خليل جبران	٨	رسبتين الراهب المحتال اسعد خليل داغر
١٠	كلمات جبران خليل جبران	٥	تاريخ غليوم الثاني امير المانيا بقلم كريم ثابت
٥	رمل وزبد لجبران خليل جبران	١٢	المرشد الظريف في طالع اللطيف
٨	النبي لجبران خليل جبران	٨	القوة الفكرية في المغنطيسية
١٥	دمعة وابتهامة لجبران طبع اميركا	٥	الرحلة السورية في الحرب الم
١٠	مذكرات سفير اميركا في الستانة	١٢	نوادير الحرب العظمى قصص واقعية
٤	رسائل من اعماق السجون لاوسكار وايلد	١٥	مذكرات مدام اسكويث ته
١٥	مذكرات المارشال هندنبرج جزآن	١٠	اسعد خليل داغر
٢	بيضة الفرخة وهو بحث مفيد لذيذ	٣٠	ماك سويني الارلندي تا
٤	تاريخ لودندرف القائد الالماني	١٠	ووصف سجنه
٨٠	دائرة المعارف للبستاني يوجد منها الجزء الاول والسابع والثامن والحادي عشر	١٠	الساق على الساق في ماهو الفا
٨	روح الاجتماع تعريب فتحي باشا زغلول	١٠	رسائل اليازجي للشيخ ابر اليازجي ويليام ديوانه

اعتراف تولستوي

بقلم

الدكتور محمد ريت انطونيوس بشر فحمه

صاحب مجلة الحالات



عني بنشره وتصحيحه

الشيخ يوسف توما البستاني

صاحب مكتبة العرب

بالفجاءة بمصر



١٩٣٠

مطبعة العرب للبستاني
الطبعة الاولى

أهداء الكتاب

الى كل من يحب الحق ، ويعرف الحق ، ولا
يخاف في سبيل الحق لومة لائم
ا. ب .

كلمة المترجم

درس حياة العظماء خير الدروس التي تعود على صاحبها بعميم
«الفوائد»، وخصوصاً اذا كانت حياة العظيم مكتوبة بقلمه. وفي رأي
العارفين ان أفضل ما كتبه تولستوي، الفيلسوف الروسي الذائع
الشهرة، في تاريخ حياته وفلسفة الحياة عموماً هو الفصول التي اطلق
عليها اسم «اعترافي، دياتي، انجيلي». وقد رأيت أن اقلها الى
العربية رغبة في اطلاع ابناء قومي على ما فيها من الخنايق الجميلة
والدروس النافعة مبتدئاً بالكتاب الاول الذي سميت «اعتراف
تولستوي» راجياً ان يقرأه الادباء بما يستحقه من العناية.

كتب تولستوي اعترافه هذا سنة ١٨٧٩ فلم تسمح السلطة
بطبعه في روسيا ولذلك طبع في جنيف سويسرا. ومثله الكتاب
الثاني والكتاب الثالث. وقد ترجمت هذه الكتب الى جميع اللغات
الحية ونحن، بعد ان ترجمنا الجزء الاول منها وهو «اعتراف
تولستوي» هذا نشتغل اليوم بترجمة الجزئين الآخرين وهما «ديانة
تولستوي» و«انجيل تولستوي» وسنجعلها من مجلدات الخالدات
في اعوامها المقبلة ان شاء الله.

واني منذ الآن. الفت انظار القراء الى حقيقة مهمة قبل قراءة
هذا الاعتراف: وهي ان تولستوي يصف فيه أيام كفره المظلمة

— ٤ —

ايجعلها مقدمة لا يام ايمانه المنيرة التي سيطالها القراء في « ديانة
تولستوي » و « انجيل تولستوي »

وهناك حقيقة أخرى أود ان أقدمها للقارئ الاديب قبل
اطلاعه على هذه الكتب وهي ان ترجتي لمثل هذه المؤلفات
لا تقيدني ولا بصورة من الصور بفكر المؤلف وآرائه . فهو حر
في معتقده وانا حر في معتقدي ولكنني من المعجبين بأسلوبه
الكتابي الخالد ، فهو وان كان بعيداً عن الرغبة في فصاحة الكلام ،
وهذا ظاهر من تكراره لكلمات كثيرة في الصفحة الواحدة بل وفي
العبارة الواحدة كما يرى القارئ في هذا الاعتراف ، فان الفكر
رائده والمنطق السديد رفيقه في جميع ما يكتب .

الارشمندريت

انطونيوس بشير

اميركا الشمالية

لسنة ١٩٢٩

الفصل الأول

قد تنصرت وقبلت مذهبى الدينى فى الكنيسة الارثوذكسية وتعلمت ايمانها فى طفولتى وصبوتى وشبابى . بيد انى لم ابلغ الثامنة عشرة من عمري حتى تركت الجامعة فى السنة الثانية من دخولى اليها وحررت نفسي من كل ضروب العبادة والايمان التى تعلمته .

وانى بما لا ازال اذكره عن تلك الايام اصرح انى بالحقيقة لم اكن فى ما مضى من عمري راغباً فى الايمان بعقائد الكنيسة . ولكنى كنت اثق بالايمان الذى يعتقد به الشيوخ من انسابى ولكن هذه الثقة نفسها لم تكن راسخة فى ذهني .

اذكر مرة عندما كنت فى الثانية عشرة من العمر ان ولدأ زارنا وقضى معنا نهار الاحد يحدثنا بالاختراع الاخير الذى اهدت اليه مدرسته . وخلاصة هذا الاختراع ان المدرسة وجدت بعد البحث ان الله غير موجود وان كل التعاليم عن وجوده هي من مخترعات الناس (وكان هذا فى سنة ١٨٣٨) . وقد أخذ هذا الخبر بمجامع قلوب اخوتى وأذنوا لى ان انخرط معهم فى البحث وهكذا قبلنا كلنا هذه النظرية الجذابة التى قد تكون حقيقة نافذة .

واذكر أيضاً ان شقيقى الاكبر ديمتري الذى كان إذ ذاك طالباً فى الجامعة عندما حملته طبيعته الحساسة الى الاستسلام للايمان والصلاة بحرارة قلب والذهاب الى الكنيسة فى كل صباح ومساء .

والتمسك بالصيامات والحياة الادبية الفضلى في عقيدته كنما باجمعنا نحن الصغار وكثير غيرنا من الكبار نسخر به حتى اننا اطلقنا عليه في آخر الامر لقب السيد نوح .

واذكر جيداً ان موسين بوشكين ، ناظر جامعة كازان في ذلك الحين ، دعانا الى حفلة راقصة ، وبذل جهده ليقنع أخي ديمتري ، الذي رفض الدعوة بحجة ان الرقص مناف للاداب ، والناظر يؤكد له ان داود الملك نفسه رقص أمام التابوت .

وقد عملت كل هذه الحوادث على قيادتي أخيراً الى ان الواجب يقضي عليّ ان أتعلم عقائد كنيسة ، واذهب الى صلواتها ولكن الاهتمام الزائد بالعمل بها لم يكن ضرورياً في عقيدتي .

ومما أذكره انني قرأت فولتر وانا في فجر شبابي ولم انفر من تهكماته بل كنت استلذ مطالعتها واحبها .

وقد رافقتي هذا النفور من الدين ، كما رافقتني الآن ، وكان له في حياتي نفوذاً فعالاً كما له في حياة جميع المولودين في نفس المحيط الذي ولدت فيه والعائشين في بيئة كييتي . ويلوح لي اني استطيع ان أعبر عنه بما يأتي : —

يعيش الناس في هذا العالم معيشة متساوية ، وهم في الغالب لا يعملون بمبادئ الايمان الذي يتعلمونه في المدارس بل بكل ما يعاكسه ، فان المعتقد لا تأثير له في الحياة ولا في علاقات الناس بعضهم مع بعض ، ولكنه كائن في دائرة منفصلة عن الحياة مستقلة

عنها . وكما تنازع المعتقد والحياة كانت السيادة للحياة ، لان قوة الاول لا تتعدى المظاهر الخارجية من كيانها

فحياة الانسان وأعماله كانت في ذلك الوقت كما هي اليوم قاصرة عن اظهار جوهر ايمانه ومعتقده . فان كان ثمت من فرق بين الذي يسلم بعقائد الكنيسة الارثوذكسية والذي ينكرها فان هذا الفرق في مصلحة الاول . وفي ذلك الوقت كما في وقتنا هذا نرى المتمسكين بحروف العقائد ومظاهرها يؤلفون الاكثرية الساحقة من البله والغليظي الطباع والمرائين والمتطوسين (المتخلفين باخلاق الطاووس) أما الذكاء ، والشرف ، والصراحة ، والايثار والادب فهي في الغالب بين غير المؤمنين اكثر مما هي بين المؤمنين .

يتعلم ابن المدرسة التعاليم المسيحية ويرسل الى الكنيسة وكل ما يطلب منه انصار الطقس الظاهري في هذا العهد من حياته ان يظهر شهادة الكاهن بانه اعترف وتناول الاسرار المقدسة . ولكن الرجل الذي يخرج من المدرسة ويقضي عليه بان يكون بين الطبقات الممتازة التي لا عمل لها فانه قلما يجد من يذكره بانه يعيش بين المسيحيين وانه عضو في الكنيسة الارثوذكسية المسيحية .

هذا هو حالنا اليوم كما كان من ذي قبل . — فان تأثير التعليم الديني الذي قبلناه في المدرسة عن طريق الثقة والايثار البسيط ، وحفظته السلطة المطلقة في حياتنا ، يضمحل شيئاً فشيئاً تجاه المعرفة التي نستمدّها من اختبارات الحياة اليومية التي تناقض كل مبادئه ،

ومع ان الفرد منا يعتقد ان ايمانه لا يزال راسخاً في اعماق قلبه فان هذا الايمان لا أثر له في حياته العملية ،

جاءني أخيراً رجل فاضل من معارفي وقص عليّ كيف خسر ايمانه — قال ما خلاصته : —

حدث فيما كان في الصيد منذ ست وعشرين سنة انه ركم لكي يصلي قبل ان ذهب الى فراشه ، عملاً بعادة احتفظ بها منذ صباه أما أخوه الاكبر الذي كان يرافقه في سياحته ، فانه جلس مقابله يتأمل في عمل أخيه . وعندما فرغ الاخ الاصغر من صلاته قال له الاكبر : — « اف منك ، ألا تزال محتفظاً بهذه العادة ؟ »

فلم يجب بكلمة قط ، ولكنه انقطع عن الصلاة من تلك الساعة ، ولم يذهب الى الكنيسة فيما بعد . وهكذا مرت على هذه الحادثة عشرات السنين وهذا الرجل لا يصلي ، ولا يعترف ، ولا يتناول الاسرار المقدسة ، ولا يذهب الى الكنيسة — ولم يحمله الى هذا تصديقه لمعتقدات أخيه ، التي لم يكن يعرفها ، — كلا . ولا لانه بلغ الى حقائق جديدة بدرسه وبحشه بل فعل ما فعل لان كلمات أخيه جاءت كدفعة يد ضد حائط على اهبة السقوط . فقد برهنت له تلك الكلمات ان ايمانه كان طقساً فارغاً ، ولذلك فان كل كلمة ينطق بها في صلاته ، وكل علامة صليب يرسمها ، وكل سجدة يقوم بها ، وكل حركة من حركاته الاخرى في الكنيسة لم يكن لها معنى قط . وعندما وثق بان أعماله في هذا الموضوع لا معنى لها اقلع عنها .

على هذا المنوال سارت اكثرية الناس ولا تزال تسير حتى اليوم وأنا أقول هذا عن ابناء طبقتي ، اولئك الذين يهتمم الاخلاص لحقيقة عقائدهم ، وليس الذين يتخذون من الدين وسيلة للربح والوجاهة : مثل هؤلاء هم بالحقيقة غير مؤمنين لانه اذا كان الايمان وسيلة للربح المادي فهو عند التحقيق ليس بالايمان الحقيقي بته و ابناء طبقتنا هؤلاء يلخص مركزهم كما يأتي : - ان نور المعرفة والحياة قد اذاب قصور الايمان المصنوعة من الشمع في اعماقهم فادرك فريق منهم حقيقة الامر وعمدوا الى تنظيف اعماقهم من آثار هذه القصور المتهمة . ولكن الفريق الآخر ظل متعاميا عن هذه الحقيقة فلم يشعر بها .

لذلك اعترف الآن بان الايمان المغربي في اعماقي متذبوتي قد زالت آثاره من قلبي كما نزول من قلب كل انسان. ولكن الفرق بيني وبين الكثيرين هو انني منذ الخامسة عشرة من عمري شرعت اقرأ كتب الفلاسفة ، وادركت في أعماقي عدم ايماني . فقد انقطعت عن الصلاة . وأنا في السادسة عشرة من العمر ، ونحوت عن حضور الاحتفالات الكنسية ، والمحافظة على صيامات الكنيسة بملء ارادتي وقناعتي . قد طرحت غني الايمان الذي تعلمته في صباي وما برحت اؤمن بشيء ، ولكنني لم أقدر أن أوضح ماهيته . قد آمنت بالله ، أو بالحري لم انكر وجود اله ، ولكن لم أقدر أن أوضح شيئاً عن هذا الاله الذي لم انكر وجوده . انني لم انكر المسيح

ولم اجحد تعاليمه ، ولكن الحقيقة التي تدور عليها هذه التعاليم لم أعرف عنها شيئاً .

واليوم عندما افكر في ذلك العهد أرى ان كل الايمان الذي كان لي فكان له — بقطع النظر عن الغريزة الحيوانية المجردة — التأثير النافذ في حياتي كان ينحصر في عقيدتي بإمكانية البلوغ الى الكمال الذي لم اكن اعرف شيئاً عن حقيقته أو نتائجه .

قد جربت الوصول الى الكمال الفكري ، ودرست كل ما بلغت اليه قوتي من مواضيع الحياة ، وجاهدت طويلاً لانماء قوة ارادتي واضعاً لنفسي قواعد للعمل بها بدقة وصرامة ، وبذلت قصاري لتقوية جسدي بالرياضة المتنوعة التي تعمل على صلابة العضلات والاحتفاظ بالقوة البدنية ، وعودت نفسي الصبر واحتمال المشقات والآلام الاختيارية ، وكنت انظر الى جميع ذلك نظرتي الى اعظم وسائل للبلوغ الى الكمال المنشود .

وفي بداية عملي كنت أعتقد ان الكمال الادبي هو غايي الرئيسية ، ولكنني لم البث ان وجدت نفسي ساعياً وراء الكمال العام في جميع الاعمال . أو بعبارة أخرى انني لم ارغب في الكمال أمام نفسي أو أمام الله ، بل بالكمال أمام جميع الناس . ولكن هذا الشعور بمحبة الكمال في عيون جميع الناس لم يمس عليه ربح حتى تحول الى رغبة في الحصول على قوة ليس للناس مثلها ، والبلوغ الى أقصى ما يكون من الشهرة والثروة والمجد

الفصل الثاني

سيطال القراء في فصل تال خلاصة تاريخ حياتي ، وحوادث .
صبوتي المؤلمة والممتلئة بالدروس والعجائب . واني أعتقد ان الذين
مرت بهم اختبارات حياتي كثيرون جداً في العالم . فقد رغبت من
أعماق قلبي في ان اكون صالحا . ولكنني كنت صغيراً ، وكانت
لي اهوائي الجامحة ، وكنت وحيداً منفرداً في تفتيشي عن الصلاح
فكنت كلما جربت أن أعبر عن حنين قلبي الى الحياة الادبية أرى
جيوش الاحتتار تحيط بي والسخرية ترافقني ، في حين اتني كلما
استسلمت لشياطين اهوائي يلازمني الاطراء والتشجيع من كل
قوة في فكري

ولذلك كانت اسمى مراتب الاخلاق الصالحة في عقيدتي .
منحصرة في الطموح ، ومحبة القوة ، والحصول على الربح ، والكبرياء
والغرور ، والغضب والانتقام .

وهكذا صرت باستسلامي لاهواء نفسي مماثلاً لآبناء عشيرتي .
شاعرا برضاهم عن تصرفي . ومن اعجب ما اذكره عن تلك الايام
اني كنت اعيش مع عمة لي ، هي بالحقيقة امرأة فاضلة ، ولكنها
طالما حدثتني بان اعظم ما ترجوه لي في حياتي من المجد والفخر
ينحصر في ان أراود امرأة متزوجة عن نفسها واربح قلبها . ومن

رغباتها الكثيرة لسعادتي أن أصبح ملازما عسكريا ، وان امكن ملازما للامبراطور . واعظم من كل هذا : ان اتزوج يوما من الايام غرو ساغنية تحمل لي ثروة بالغة من ألوف الدنانير وعشرات العبيد انني لا استطيع أن اتذكر حوادث تلك الاعوام السوداء من غير مرارة في قلبي وآلام في اعماق روحي .

قد قتلت الكثيرين في الحرب ، وبارزت الكثيرين لافقدهم حياتهم ، وخسرت أموالا كثيرة بالمقامرة ، وانفقت الاموال الكثيرة التي وصلت اليّ باعراق الفلاحين ، وكنت قاسيا عاتيا في معاملة خدامي ، ولم اترك سبيلا من سبل الفسق والدعارة مع العواهر الا سلكته ، ولم تفتني طريقة من طرق الخداع والمراوغة : كذب وسرقة ، وزنا ، وسكر وتمرد وقتل . كل هذا جزء من حياتي في تلك الايام . فليس في قاموس الجرائم جريمة واحدة لم ارتكبها — ولكنني كنت مع كل ذلك مكروما محترما من ابناء عشيرتي كرجل أديب فاضل .

هكذا عشت مدة عشرة سنوات

وفي هذه المدة بدأت بالكتابة التي لم يحملني اليها سوى غروري ومحبتني للربح ، والشهرة الكاذبة . وقد تبعت بكتابتي نفس الطريق التي اتخذتها لنفسي في رجولتي . ومن أجل رغبتني في الحصول على المال والشهرة ، التي لاجلها اتخذت القلم حرفة لي ، كنت ارى نفسي مضطرا ان اخفي الصالح واظهر الشرير في كل ما اكتبه . هكذا

فعلت . وطالما قضيت الليالي أحارب أفكارى ، لاخفى ما فيها من الطموح الى الاكل والافضل ، الذي كان بالحقيقة ضالة أحلامي الحقيقية . ولكن رغبتى في الشهرة كانت تقضي على كل صلاح في فكري . وعلى خداعي الكثير في كتابتي نجحت نجاحا باهراً ، وكان الناس يقرأون كتابتي مادحين شاكرين

وعندما بلغت السادسة والعشرين من العمر ذهبت الى بطرسبرج في نهاية الحرب ، وهناك تعرفت بكبار المنشئين والكتاب في تلك الايام . فاستقبلني الجميع بالتأهيل والتعظيم . وقبل أن أجد لنفسي فرصة لدرس المحيط الذى جئت اليه وجدت ان عادات الكتاب واطوارهم في تلك المدينة قد لزمتني ، وصارت جزءاً من حياتي ، وقضت قضاء مبرماً على كل آمالي وجهادي في سبيل الكمال في الحياة . ولم تعدم هذه الاراء والعادات الجديدة مبرراً في ذهني لان فكري كان على اتم الاستعداد لكل جديد .

وكانت لرفقائي الكتاب في ذلك العهد نظرية في الحياة خلاصتها : ان الحياة نشوء لا حد لتطوراتها ، وان القوة الفعالة في احداث هذه التطورات مستمدة منا نحن المنكرين ، وان اقدر المفكرين على القيام بهذا العمل هم الفنانون والشعراء . لذلك ينحصر واجبنا في الحياة كمفكرين فنانين وشعراء ان نعلم الناس ، ونصبغ افكارهم بصبغة افكارنا .

ولكي اتجنب الجواب على السؤال الطبيعي الذي كان يواجهني في هذه الظروف وهو : « ماذا اعرف ؟ وما الذي اقدر ان اعلمه للناس ؟ » كنت اضيف الى النظرية المار ذكرها انه ليس من الضروري ان اعرف هذا ، لان الفنان والشاعر يعلمان ما يصل اليهما بطريق الوحي من غير ان يشعرا به .

وكان الناس ينظرون اليّ نظرتهم الى شاعر كبير وفنان عظيم . ولذلك اتخذت هذه النظرية لنفسني وأمنت بها . وانا ، الفنان والشاعر ، كتبت وعلمت ما لم تكن لي اقل معرفة به . ولكنني كنت اقبض اجرة عن عملي . فاقتنيت لنفسني المنازل الفخمة ، وانفقت الاموال الكثيرة على الولائم ، والحفلات الاجتماعية ، وكان لي نصيب وافر من الشهرة ، وكنت اعتقد بحكم الطبع ان تعاليمي صالحة ومبادئ مستقيمة .

كان الايمان بالشعر ، وبنمو الحياة ، ايمانا حقيقيا ، وكنت كاهنا حقيقيا ابشر به . وكان القائم بمثل هذا العمل اذ ذاك رفيقا للربح والكرامة في جميع اعماله . ولذلك بقيت عاملا على نشره زمنا طويلا ولم اشك في صحته .

ولكنني في العام الثاني ، وخصوصا في العام الثالث من هذه الحياة ، بدأت أشك في عصمة هذه العقيدة ، فعمدت اخصها وادرسها ، باوفر دقة وفطنة . واول ما دفعني الى الشك انني رأيت كهان هذه

النظرية متخالفين فيما بينهم في فهمها والعمل بها . فكان فريق منهم يقولون : —

« نحن افضل المعلمين وانفعهم . نحن نعلم الناس ما هم في حاجة اليه ، وكل المعلمين الاخرين في ضلال مبين . »
وكانوا يتخاصمون ويتحاربون فيما بينهم ، وكل منهم يبذل قصاراه ليسي الى الآخر ويخدعه ويكر به . وفوق هذا فان الذين وقفوا على الحياد منا فلم يهمهم الانحياز الى احد الفريقين المتناظرين ، لم ينزهوا ذواتهم عن العار الذي انقاد رفقاءهم اليه ، بل عمدوا الى الحصول على الربح الخصوصي باستثمار جهود رفقائهم المتخاصمين . كل هذا حملني الى الشك في صحة العقيدة التي آمنت بها .

وقد دفعني هذا الشك في صحة ايماننا الادبي العلمي الى درس حياة كهانه فرداً فرداً . فثبت لدي بعد الدرس الطويل ان الاكثريه الساحقة بينهم رجال اردياء لا قيمة لاعمالهم ، ولا صلاح في حياتهم وهم بالحقيقة في مستوى اكثر انحطاطاً من المستوى الذي عاش فيه رفقائي في العسكرية . ولكنهم واهمون في ذواتهم ، واثقون بصلاحهم ، ولا توجد مثل هذه الثقة الا في القديسين الحقيقيين ، او في اولئك المراثين الذين لا يعرفون للقداسة من معنى .

حيثئذ يئست من الانسانية ومن نفسي ، وادركت ان ذلك الايمان لم يكن الا وهماً عقيماً . وأعجب ما في الامر اني ، على اعراضي عن الايمان بهذه النظرية الفاسدة ، ورفضي الاجتماع باصحابها

واتباعها ، ما برحت أمسك باللقب الذي منحني اياه كهنتها ، وهو لقب شاعر وفنان ومعلم . فقد قادتي بساطتي ، في ذلك العهد ، الى التصور انني شاعر وفنان ، واني استطيع ان اعلم الناس من غير ان اعرف ما الذي اعلمهم اياه . ولكنني كنت افعل كل هذا .

وقد ربحت من مصاحبتي لاولئك الرجال رذيلة جديدة ، غروراً معجوناً بالكبرياء والعناد ، وثقة بالنفس سدها الجنون ولحمها الاعتقاد بانني قادر ان اعلم الناس ما لا اعرفه ولا اشعر به . وعندما افكر الان في تلك الايام واتذكر حالي الفكرية ، وحالة المفكرين رفقائي ، (الحالة التي لا تزال شاملة الالوف من ابناء الانسان) اشفق على نفسي واخاف منها واحتقرها .

فقد كنا باجمعنا مقتنعين بان الواجب يقضي علينا ان نكتب ونتكلم ونطبع كتابتنا وكلامنا بسرعة فائقة ، لانه على هذا يتوقف عمران الوجود ونجاح الجنس البشري

ولكن الوفاً منا كتبوا ، وطبعوا ، وعلموا ، ولم يعملوا الا على ضلال الناس وخداع احدهم الاخر . لاننا لم ندرك اننا نحن انفسنا لا نعرف شيئاً لان ابسط مسائل الحياة — وهي مسألة ما هو الخير وما هو الشر — لم نعرف كيف نجابوب عليها . ولكننا كنا نجتمع ، ونتكلم ، ونخطب ، من غير ان يصغى احدنا للاخر الا لكي يطرئه ويشي عليه واثقاً بان مثل هذا الاطراء سيرجع اليه مضاعفاً ، ثم لا نلبث ان يشور بعضنا على بعض ، ويخاصم واحدنا الاخر ،

كاننا نمثل رواية كاملة كل ابطالها مجانين من الدرجة الاولى .
وكان الالوف من العمال يشتغلون ليلاً ونهاراً بصف الحروف
ليطبعوا اقوالنا ، وينشروها في جميع انحاء روسيا ، ونحن لا ننقطع
هنيهة عن التعليم والكتابة ، متذمرين ان الوقت اضيق من ان
يكفي للقيام باعمالنا ، وان الناس لا يصغون الى اقوالنا الحكيمية .

حالة عجيبة غريبة لم افهم حقيقتها في ذلك الحين ، ولكنني
ادركها اليوم كما هي . فان العامل الحقيقي الذي كان يوحى الينا
افكارنا واقوالنا في ذلك الوقت انما هو الرغبة في الحصول على
المال والمديح اللذين لم نعرف طريقة للحصول عليها بغير تأليف
الكتب والجرائد . وهكذا فعلنا . ولكي نزداد تمسكاً بالاعتقاد اننا
ونحن نقوم بهذه الاعمال التافهة نؤلف اعظم طبقة في روسيا ، رأينا
ان نبرر ذواتنا بذواتنا بتعظيم العمل الذي نقوم به ، ولذلك قررنا
في اجتماع عام القرار الآتي : —

« كل ما هو كائن فهو حق وصواب . وكل ما هو كائن انما
هو نتيجة للنشوء فالنشوء يصدر من المدنية . ومقياس المدنية هو
انتشار الكتب والجرائد . نحن نقبض اجرتنا ، وننال اكرام الشعب
واعتباره لقاء الكتب والجرائد التي نؤلفها ، ونحن لاجل هذا انفع
الناس وأفضلهم . »

وربما كان هذا القرار نهائياً ، لو اجمعت كلمتنا عليه . ولكن
كل رأي من آرائنا كان يصادف في الحال رأياً آخر يناقضه ، ولذلك

كنا نتردد طويلا في قبول اي اقتراح نسمعه . بيد اننا لم نعبأ
للامر ، لاننا كنا نقبض اجورنا ، وننال اطراء المجتمعين حوالينا .
ولذلك كان بخيل اليانا اننا في جانب الحق .
والحقيقة التي اراها واضحة أمام عيني وأنا أكتب هذه
السطور أنه لم يكن ثمة أقل فرق بيننا وبين المجانين . ومع اتني
كنت افكر في هذا من ذي قبل ، ولكنني كسائر المجانين كنت
اعتقد أن جميع رفقائي مجانين وليس بينهم عاقل غيري

الفصل الثالث

وقد عشت في هذه الحالة الجنونية ست سنوات اخرى الى
وقت زواجي . وفي هذه الاثناء سافرت الى اوروبا . وكانت حياتي
في اوروبا ، وتعرفني بعضاء مفكرها وعلمائها ، عاملا فعلا على تأييد
عقيدتي بامكانية البلوغ الى الكمال العام الذي كان المفكرون في
اوروبا يؤمنون به . وهو الى اليوم يشغل أذهان المفكرين في جميع
انحاء العالم وهم يعبرون عنه بكلمة التقدم . وقد اعتقدت في ذلك
الوقت أن هذه الكلمة ذات معنى حقيقي بذاتها . لاني لم أكن
بعد قاهما انني عندما أرى نفسي معذبا ، كجميع الناس ، من السؤال
« كيف أقدر أن أعيش أفضل مما أنا عايش ؟ » فاجيب بانه يجب
عليّ أن أعيش لأجل التقدم العام ، انما اردد جواب الرجل الذي
كان يسير في قارب تحمله أمواج البحر ورياحه ، ولا يرى أمامه

سوى السؤال الواحد : « الى أية جهة يجب أن ندير الدفة؟ » فيجب على الفور قائلا : « اننا مسيرون الى جهة ما . »
انني لم ارَ هذه الحقيقة في تلك الايام . ولكن عواطفى دون افكاري كانت تشور في ظروف نادرة على خرافات ذلك العصر . واوهامه التي تقود الناس الى تجاهل جهلهم المذيب لحقيقة الحياة .

وفي اثناء اقامتي في باريس اظهر لي منظر اعدام أحد المجرمين ضعف اعتقادي الوهمي بالتقدم . لانني عندما رأيت رأس الرجل يطير عن جثته ، وسمعت الصوت الذي أحدثه سقوط رأسه وجثته في الصندوق المعدلها ، ادركت بكلية كياني ، وليس بفكري فقط انه ما من نظرية بحكمة جميع النظم الموضوعة ، والعقائد المقررة القائلة بالتقدم والارتقاء ، تستطيع أن تبرر مثل هذا العمل الفظيع وأدركت أيضاً في اعماق قلبي انه ، ولو اجمعت كلمة كل أبناء الانسان منذ الخليقة الى الآن ان مثل هذا العمل ضروري للتقدم . فاني اعرف كل المعرفة ، انه غير ضروري ، وانه عمل ردي . بذاته ولذلك يجب عليّ أن أحكم على ما هو حق وضروري ، ليس بما قاله الناس وفعالوه ، ولا بما رتبوه من النظم للتقدم ، بل بما اشعر بصوابه في اعماق قلبي .

وهناك حادثة اخرى ، اظهرت لي نقصان الرأي القائل بضرورة اتخاذ عقيدة التقدم الوهمية هذه نظاما للحياة . أما الحادثة فهي موت أخي . فقد مرض وهو في مقتبل العمر ، واحتمل آلام

مرضه المريرة عاما كاملاً ، ومات متألماً متوجعاً . فقد كان رجلاً مقتدراً بالقول والعمل ، وكان ذا قلب رقيق ، هادئاً ، رصيناً ، ولكنه مات ، من غير أن يعلم لماذا عاش في هذا العالم ، جاهلاً حقيقة الموت كل الجبل . ولم تقدر نظرية أو عقيدة في الوجود أن تجاوب على هذه المسائل جواباً يقنعه ، أو يقنعي ، سحابة مرضه وأوجاعه .

على أن هذه الحوادث ، التي عملت على اضطراب إيماني بالتقدم . كانت قليلة جداً ، وبعيدة بعضها عن بعض . ولذلك كنت اواظب على معتقدي بالكمال وإيماني بالتقدم . وكانت تعزيتي الواحدة بهذه العبارة التي ألفتها لنفسي : « كل شيء ينمو ويتغير . وأنا نفسي أُنمو واتغير كل يوم . وسيأتي يوم يدرك فيه الجميع سر هذا النماء » . وعند رجوعي من أوروبا هجرت المدن وأقيمت في الريف ، وعمدت الى انشاء المدارس في القرى والمزارع لتعليم الفلاحين . وقد كان هذا العمل عزيزاً لدي جداً ، لبعده عن الادعاء الفارغ ، الذي يرافق وظيفة المعلم الأدبي الكبير الذي يشتغل بالتأليف ، والكتابة .

وفي هذه الحالة كنت اشتغل ثانية باسم التقدم ، ولكنني في هذه المرة كنت انظر بروح الفاحص الناقد الى الاسس التي يقوم عليها صرح التقدم . فقلت لنفسي ، ان التقدم يجب أن ترافقه الحرية والعقل ، ولذلك يجب أن يُعطى أبناء الريف وأولاد الفلاحين .

ملء الحرية باختيار الطريق التي تلائمهم للبلوغ الى التقدم الذي يحتاجون اليه . واتي اصارح القارىء القول انني كنت لا ازال اعالج حل القضية التي لا حل لها : — « كيف اعلم من غير أن أعرف ما يجب أن أعلمه ؟ » فقد أدركت ، في أرقى مراتب الاعمال الادبية ، ان مثل هذا العمل مستحيل ، لانني رأيت ان كلا من المعلمين يختلف عن الآخر بطريقة تعليمه ، وبما يعلمه ، ولذلك يخاصمه ، وينازعه ويجاهد عبثا ليخفي عنه جهاته وغروره . ولكنني ، وقد انحصرت أعمالي باولاد الفلاحين ، رأيت انني قادر أن اتغلب على هذه العقبة ، باطلاق حرية الأولاد ليتعلموا الموضوع الذي يحبونه واكاد اخجل من نفسي عند ما اتذكر الطرائق العديدة التي لجأت اليها لتعليم الناس ، وأنا أعرف في نفسي انني لا استطيع أن أعلم شيئا نافعا ، لانني انا نفسي لم أكن اعرف ما هو الضروري للناس .

وبعد أن قضيت عاما كاملا في تنظيم مدارس الفلاحين رجعت الى اوروبا ثانية لكي اتعلم كيف أقدر أن أعلم من غير ان اعرف شيئا وقد ثبت لدي بعد الدرس والفحص انني قد وجدت الحل الاخير للقضية فتسلحت بمعلوماتي الحكيمة الجديدة ، ورجعت الى روسيا في نفس السنة التي نال فيها الفلاحون حريتهم من العبودية ، فعميت فيها قاضيا ، وعمدت الى تعليم غير المتعلمين ، بواسطة المدارس والمتعلمين ، بواسطة اعمدة الجريدة التي شرعت في اصدارها ، وقد سارت أعمالي على أم مايرام من النجاح ، ولكنني شعرت ان

عقلي لم يكن في حالة طبيعية ، ولذلك ادركت أن تغييراً فجائياً سيطراً عليّ . واني ارجح أن اليأس الذي اصابني ، بعد ذلك بخمس عشر سنة ، كان يمكن أن يصيبني اذ ذاك لو لم يقم في سبيله حادث عظيم في حياتي جعلني في مأمن منه ، وهو حادث زواجي .

وقد مر العام الاول وأنا اشغل في كل دقيقة من يومى بالتحكيم ، والتعليم في المدارس ، وتحرير جريدتي ، حتى شعرت انني أكاد ارحح تحت اثقال الواجبات الكثيرة التي القيت علي كاهلي . وظل الحال هكذا حتى صرت انظر الى كل أعمالي في القضاء ، والمدرسة ، والجريدة ، نظرتي الى ألد اعدائي . فوقع ، اخيراً في مرض عقلي ، أكثر مما هو جسدي ، وتركت أعمالي ، وسرت الى البرية ، حيث أصبحت وحيداً انتشق نسيم الطبيعة النقي ، واعيش بين الحيوانات البرية المعيشة الطبيعية الحق .

وعند رجوعي تزوجت . فقادتني السعادة التي وجدها في حياتي الزوجية الى الهرب من السعي وراء ادراك معنى الحياة العام فخصرت أفكاري وجهودي في عيالي — في زوجتي ، واولادي ، وفي الاهتمام بتوفير وسائل الراحة لهم ولي . فالجهد للبلوغ الى الكمال الشخصي ، الذي عقبه العمل على تأييد التقدم العام ، تحول اخيراً الى السعي وراء سعادة عيالي الصغيرة .

على هذه الصورة عشت مع أهل بيتي خمس عشرة سنة . ومع اني في اثناء هذه الخمس عشرة سنة كنت انظر الى صناعة

الانشاء والتأليف نظرة احتقار ، فقد واظبت كل المدة على الكتابة والتأليف . فقد خبرت بنفسي ما في هذه الصناعة من الترغيب والتشويق ، وما تقدمه المنخرطين بها من المكافأة المالية على ما يكتبونه ويؤلفونه ، اذا نال رضى العامة ، واقبلت الجماهير على مطالعته ، ولذلك عمدت الى الكتابة ، لمجرد الرغبة في تحسين حالي المادية مغمضاً عيني عن البحث عن حقيقة حياتي أو الغاية من الحياة كلها . وكنت اعلم في جميع كتاباتي الحقيقة الواحدة ، التي اعتقدت بها اذ ذاك ، ان غاية الحياة يجب أن تنحصر في الحصول على سعادتنا وسعادة عائلاتنا لا اكثر ولا أقل .

هكذا عشت — ولكنني منذ خمس سنوات ^(١) شعرت بتطور غريب في حياتي ، فكنت أرى نفسي في حيرة ، لا أدري كيف اتخلص منها : لا أعرف كيف أقدر أن أعيش ، ولا ماذا أعمل في حياتي ، فبت مضطرب البال ، تتقاذفني أمواج اليأس ، وتسير بي رياح التردد حيث شاءت . ولكنني تغلبت على كل هذا ورجعت حياتي الى مجاريها الاولى . غير ان الشقاء كتب لي في ذلك الوقت فعاودتني حيرتي في الوجود ، فبت انشد راحتي ، ولا أجد أمام عيني سوى شبح قائم يردد علي بصوته الراحب قائلًا : —
« لماذا تعيش ؟ وما هي الغاية من حياتك ؟ »

(١) كتب تولستوي هذا الاعتراف سنة ١٨٨٣

وقد خطر لي أولاً أن هذه المسائل لا معنى لها ، ولا غاية منها
وان الجواب عليها بسيط أهتدي اليه بملء السهولة متى اردت .
ولكن عجزني عن البلوغ الى الجواب في ذلك الوقت كان ناشئاً
عن اشتغالي بمواضيع اخرى ، واني سأهتدي الى الجواب متى افردت
له متسعاً من وقتي . ولكن هذه المسائل ما برحت تزدهم أمام
عيني طالبة جواباً ، من غير أن تفسح لي وقتاً لادرسها ، وهي
تتجمع في كل لحظة بعضها وراء بعض ، كما تتجمع النقط الصغيرة
ليتألف من مجموعها بقعة سوداء كبيرة .

وقد اصابني نفس ما يصيب كل مريض في بداية مرضه ،
تعرض له بعض الايام بسيطة ، فلا يعابها ، وهي لا تلبث أن
تزيد وتتجمع حتى يتألف من مجموعها داء عياء ، يقضي على راحته
ويسلبه سعادته ، فيعتمد المريض المسكين الى ملافاة الخطر ، ولكنه
يرى نفسه قاصراً أمام عدوه ، ويدرك أن المسئلة ، التي بدت له
لأول وهلة تافهة لا أهمية لها ، قد أصبحت قضية في الوجود يسعى
الى حلها ، ولا يهتدي الى ما ينقذه منها ، وهي قضية موته .

هذا نفس ما حدث لي . فقد ادركت اخيراً أن ما يواجهني
من الاضطراب ليس بالامر البسيط الذي لا يؤبه له ، بل هو داء
عضال يجب أن احاربه قبل أن يتأصل في كياني ويستحيل عليّ
استئصاله . ومع ان المسائل التي كانت تعرض امامي ، ظهرت لي
في أول الامر بسيطة ، أشبه بأسئلة الصبيان الصغار منها بالاسئلة التي

يجب على الحكيم أن يعيرها اهتمامه ، فانتى رأيت في كل مرة جربت أن أجيب عليها ، انها ليست اسئلة صبيان بسيطة ، بل هي بالحقيقة شاملة لاعمق أسرار الحياة البشرية . وانتى عاجز بكل ما لدي من المعرفة أن اقدم عنها جواباً واحداً .

لذلك كنت ، قبل الاهتمام باملاكي ، أوتهنذيب ابني ، او كتابة كتيبي ، أرى نفسي مضطراً الى معرفة السبب الذى يحملنى الى كل هذه الاعمال . فاذا كنت لا أعرف السبب الذى يدعونى الى كل هذا ، فاني لا اقدر أن أقوم بعمل مثله ، ولا أقدر أن أعيش في الوجود . وفيما أنا افكر في تدبير بيتي واملاكي ، التي كان لها المقام الاول في فكري . في ذلك الحين ، خطر لي فجأة السؤال التالي :- « حسن وجميل ان يكون لي في حكومة سمرا ستة آلاف فدان ارض ، وثلاثمائة حصان و . . . ولكن ما الفائدة من كل هذا ؟ » ولكننى لم اعلم كيف اجيب ، ولا بماذا افكر . وحدث في مرة اخرى ، فيما أنا ارسم خطة لتعليم اولادى ، انتى سألت نفسي قائلاً : « ولماذا ؟ » وبعد أن فكرت هنيهة في خير الوسائل العائدة لفائدة الانسانية وتقدمها صرخت على الفور قائلاً : « وماذا يعنينى من موضوع كهذا ؟ »

وعند ما فكرت في الشهرة التي حصلت عليها بواسطة مؤلفاتي وأعمالي قلت في نفسي : —

« حسن وجميل . ولكن ما الفائدة اذا صرت اشهر من

غوغول وبوشكين وشكسبير وموليير ، وجميع كتاب العالم ؟ كل هذا جميل ولكن ماذا بعده ؟ . . .

اننى لم أجد جواباً . ولكن مثل هذه الاسئلة لا تطيق الانتظار . فهي تطلب الجواب في الحال . والمرة بدون الجواب عليها لا يقدر أن يحيا ولكن أين الجواب ؟ لم أدر .

فكنت اشعر ان الارض التي أقف عليها ترتجف تحت قدمي وتسير الى العدم ، وانه لا يوجد شيء استطيع ان اضغ عليه قدمي لأظل واقفاً في الوجود ، وان ما عشت لاجله حتى تلك الساعة انما هو لا شيء ، ولذلك لم يبق لي عذر للحياة ، فيجب ان اموت .

الفصل الرابع

في ذلك الوقت شعرت ان حياتي قد وقفت عن سيرها . كنت قادراً أن اتنفس ، وان اكل ، واشرب ، واناام ، ولكنني لم اكن مخيراً في تنفسي ، واکلي ، وشربي ، ونومي . لان الروح التي كانت تنعش حياتي فارقتني ، ولم يبق لي مطمع في الحياة أرى في تحقيقه والسعي ورائه لذة ومبرراً تجاه فكري . فكنت كلما رغبت في شيء ، أعرف قبل أن أنشده ، ان بلوغي اليه وعدمه سيان في نظري . ولو ان جنية جاءني في ذلك العهد بكل ما أريد ، لما عرفت ما أقوله لها . وان كان قد خطر لي ، في ذلك العهد ، في وقت ثوران

عواطفى ، بعض المشتبهات ، أو بالحري اشباه المشتبهات القديمة ، فإن كل هذا كان يزول كأنه لم يكن في حالة هدوني واعتدال عواطفى ، لانى كنت أرى انه ليس بالحقيقة سوى وهم بسيط لا حقيقة دونه ولم أقدر إذ ذاك أن أرغب في ادراك الحقيقة لان غروري كان يصورها لي كما هي

فكانت الحقيقة في عقيدتي ان الحياة لا معنى لها . فكل يوم من أيام حياتي ، وكل خطوة من خطواتي في الحياة ، كانت تقرني من الهوة الكبرى : حيث كنت أرى بملء الوضوح انه ليس أمامي سوى الخراب والدمار . وكان وقوفي عن المسير مستحيلا ، كما ان الرجوع الى الوراء كان مستحيلا أيضاً . وألم من هذا انه كان يستحيل على أن أغمض عيني فلا أرى انه لا يوجد شيء أمامي سوى الشقاء ، والالم ، والموت الاكيد والعدم .

وهكذا ، أنا الرجل السعيد ، الصحيح العقل والجسم ، صرت اشعر في أعماقي أن الحياة مستحيلة علي ، لان قوة جبارة كانت تقودني الى الهرب من الحياة . وانا لا أعني بهذا اني رغبت في قتل نفسي .

ان القوة التي ابعدتني عن الحياة كانت أقدر ، واكمل ، واعم من أية رغبة في الوجود . فقد كان لها نفس القدرة ، التي كانت للقوة الاولى التي قربتني من الحياة ولذاتها ، ولكنها كانت تسير

في جهة معاكسة للجهة التي صارت فيها تلك القوة الاولى. وقد بذلت كل جهدي للهرب من الحياة .

وكانت فكرة الانتحار تخطر لي في كل يوم ، بل كل ساعة كما كانت فكرة الجهاد في سبيل كمال الحياة ، رفيقة لأحلام شباني. وقد لزمني هذا الفكر ، وكان يبدو لي . جميلاً جذاباً ، بهذا المقدار حتى اضطرت أخيراً ان الجأ الى وسائل عديدة للحؤول دون تنفيذه بسرعة ولم يحماني الى التردد في الانتحار سوى رغبتني في استعمال كل قوى حياتي في تنظيف أفكارني من اقذار الاوهام العالقة بها . ولو لم يتم لي هذا لكنت أقتل نفسي في الحال . وما كان أشبه حياتي في ذلك الوقت بحياة رجل سعيد يخفي نبلاً غليظاً من أمام عينيه لكي يتخلص من التجربة التي يقدمها له هذا الحبل ليشنق نفسه في غرفة نومه . ولذلك انقطعت عن الذهاب الى الصيد ، خوفاً من ان تقودني البندقية التي احملها الى التخلص من حياتي . انني لم أعرف ما الذي كنت اتوق اليه . فقد كنت اخاف من الحياة ، ولذلك جاهدت للتخلص منها . ولكن مع كل هذا كان في اعماقي حنين الى شيء لم أعرفه فيها .

هذه هي الحالة التي قدر لي ان اصير اليها في وقت كانت فيه كل ظروف حياتي سعيدة جداً ، ولم اكن قد بلغت الحسنيين من عمري . بعد فقد كان لي زوجة صالحة تحبني واحبها ، وأولاد مهذبون ، وأملأك واسعة كانت تنمو وتزداد من غير أن اتعب في سبيلها .

و كنت موضوع احترام واكرام من جميع اصدقائي ومعارفي . وكان الغرباء غني بطرائقي وصار لي من الشهرة الواسعة ما لم أحلم باكثر منه . وفوق كل هذا ، فاني لم اكن مجنوناً ، ولم يكن في دماغي أقل ضعف . بل كنت على العكس من هذا ممتعا بتمام الصحة عقلاً وجسداً مما لم يكن أقل من مثله لأقراني . فكنت أجاري أقوى الحصادين في عمله ، واجلس الى مكتبي ثمان ساعات وعشر ساعات دفعة واحدة من غير أن أشعر بأقل تعب أو ضرر . ولكنني مع كل هذا وصلت الى هذه الحالة : انني اكره الحياة ولا أريد أن اعيش . ولكن خوفي من الموت كان يضطرنني الى استنباط الحيلة ضد نفسي لكي لا أضع حداً لحياتي .

ويلوح لي اني استطيع التعبير عن حالي الفكرية في ذلك الوقت بما يأتي : — كانت حياتي اضحوكة جنونية خبيثة موجهة الي من شخص لا أعرفه ، ومع انني لم أكن اعترف بوجود هذا الشخص الذي يقولون انه خلقتني ، فان هذه النتيجة القائلة بأن هذا الشخص قد ضحك عليّ بمجنون وسخرية ، عندما خلقتني في هذا العالم ، كانت تظهر لي كأنها اصدق ما في الحياة من النتائج الطبيعية .

ولم أكن اقدر ان اتخلص من التفكير في ان في الوجود كائنات يتنعم على حسابي ويسخري وهو يراقب أعمالي ، لاتي بعد ان جزت الاربعين ، وكدت ابلغ الخمسين من العمر الذي قضيته بالدرس والنمو الفكري والجسدي ، وبعد ان بلغت كمال رشدي ، ووصلت

الى قنة ادراك الحياة ، أرى نفسي واقفا على رأس جبل المعرفة البشرية فاهما بملء الوضوح انه ليس في الحياة شيء نعيش لاجله . وانه لم يوجد فيها شيء في المستقبل . ولذلك كنت أعتقد ان الذي أوجد هذه الحياة لم يقصد منه سوى السخرية والهزء بابنائها .

ولكن وجود هذا الكائن الاعلى أو عدم وجوده لم يساعدي قط . لاتي في جميع أعمال حياتي لم أقدر أن أرى عملا واحدا ينطبق على العقل . واعظم ما كان يعمل على دهشتي انني لم ادرك هذه الحقيقة في بداية حياتي . فقد كانت كل هذه الحقائق أمام سحابة عمرى ، وكنت أعرف ان المرض والموت قادمان على الجميع ، ان لم يكن اليوم فغداً ، واني وجميع اصحابي صائرون الى لا شيء ، ولا يبقى بعدنا سوى التثانة والدود . فكل أعمالى مهما عظمت سائرة الى النسيان ، ان لم يكن عاجلا فأجلا أما انا نفسى فان يكون لوجودي أثر فيما بعد . فلماذا يهتم الانسان بما في الحياة والحالة هذه؟ كيف يقدر الناس ان يتعاملوا عن رؤية كل هذا ويعيشوا ؟ ان هذا بالحقيقة لامر عجيب غريب ! فالمعيشة ممكنة اذا كان في الحياة ما يستهوي صاحبها ويسكره . ولكنه لا يلبث ان يصحو من سكرته فيدرك ان كل هذا وهم كاذب شرير . فليس في الحياة اذن شيء يضحك صاحبها أو يسليه ، لان كل ما فيها موجه وردى .

جاء في احدى القصص الشرقية القديمة ان رجلا كان يطارده وحش شرس بري ، فلجأ الرجل الى بئر لا ماء فيها لينقذ نفسه من

شر الوحش . ولكنه لسوء حظه لم يدخل البئر حتى رأى في قعرها
تيناً فاغراه ليلتلمه . فأخذ الرعب بمجامع قلب الرجل المسكين
ولكنه لم يجرؤ على الخروج من البئر خوفاً من الوحش ، ولا على
النزول الى قعر البئر خوفاً من التنين . ولذلك عمد الى غصن شجرة
صغيرة كانت نابتة في شق من شقوق البئر . ولكن التعب أخذ من
ذراعيه مأخذه فادرك انه هالك لا محالة ، لان الموت كان ينتظره
في الامرين جميعاً . ولكنه ظل متعلقاً بالغصن . وفيما هو ينظر الى
جذع الشجرة التي كان متعلقاً بها رأى جرذين : الواحد ابيض والثاني
اسود يدوران حول جذع الشجرة ، وهما يقرضانه بهمة ونشاط .
رأى المسافر كل هذا وادرك ان الشجرة ستسقط قريباً فيقع هو في
فم التنين الذي كان يترقبه بفارغ الصبر . ولكنه نظر في الوقت
نفسه بضع نقط من العسل على أوراق الشجرة فمد لسانه وشرع
يلحسها متناسياً شقاءه كله .

هكذا اتعلق انا بغصن شجرة الحياة ، عارفاً ان تنين الموت
ينتظرني ، وهو على اتم الاستعداد ليمزقني ارباً ارباً . ولا ادري لماذا
قدر لي ان احتمل كل هذه المشقات . وأنا أيضاً ، كذلك المسافر ،
كنت اسعى لامتنصاص العسل الذي عرض لي في طريقي الماضية ،
ولكن هذا العسل لا يلذ لي اليوم . في حين ان الجرذ الابيض والاسود ،
وهما الليل والنهار ، يعملان بغير انقطاع في قرض الغصن الذي
اتمسك به . اني أرى التنين بوضوح ، والعسل لم تبق له حلوة

في عقيدتي ، انني أرى التنين الذي لا مهرب منه ، وانظر الجرذين
الكبيرين ، ولا أستطيع أن احول عنهما نظري . واعظم من كل
ذلك ان هذه ليست بالقصة الخرافية ، بل هي حقيقة ناصعة لا ينكرها
أحد من الناس

أجل ، ان الوهم القديم في سعادة الحياة ، الوهم الذي حجب
عني منظر التنين الهائل ، لا يستطيع ان يخدعني فيما بعد . ومهما
بالغت في التفكير في نفسي لا قنع ذاتي انني لا أستطيع ان ادرك
معنى الحياة ، وانني يجب أن اعيش بدون تفكير ، فانتى عاجز
عن العمل بهذه النصيحة ، لانني قد عشت متمردا عليها زمنا طويلا .
فانا لا أقدر ان اغمض عيني عن رؤية الايام والليالي تقربني من
هاوية الموت بسيرها السريع الذي لا سلطة لي على ايقافه . انني
لا أستطيع ان أرى غير هذا ، لانه هو الحقيقة الواحدة في الوجود
وكل ماسواه كذب وتضليل . أما نقطتا العسل اللتان حجبتا عن
عيني منظر هذه الحقيقة الرابعة اكثر من أية قوة غيرهما في الحياة
وهما محبتي لعياتي ومحبتي للكتابة التي اطلقت عليها اسم الفن ، فلم
تبق لها سلطة على قلبي ، لان حلاوتها قد تحولت الى مرارة وعلقم .
ولذلك كنت أقول في نفسي : « عيائي ؟ » ان العيلة ، الزوجة
والاولاد ، هم أيضا مخلوقات بشرية معرضون لنفس الشقاء الذي
انا معرض له . فهم ، إما عائشون في الكذب والخداع أمام نفوسهم ،
أو انهم يجب ان يبصروا الحقيقة الرابعة . فلماذا يعيشون في الوجود ؟

لماذا احبهم واعتني بهم وأريهم وأهذبهم وأعني بأمورهم ؟ ألكي
أقودهم الى اليأس الذي يملأ حياتي ؟ أو لاجعل منهم جنوداً جديدة
في جيش الحق ؟ فانا ، بما في قلبي من المحبة لهم ، لا أقدر أن اخفي
عنهم الحقيقة ، لان كل خطوة يخطونها في طريق المعرفة تدنيهم من
هذه الحقيقة الواحدة التي هي : « الموت »

« والفن والشعر ؟ » . . .

ان ما أصابته من النجاح في الكتابة ، وما احرزته من الثناء
والإطراء ، كان يحملي ، في ما مضى من عمري ، الى اقناع نفسي
بأن مثل هذا العمل يجب أن أواصل القيام به على رغم معرفتي بدنو
الموت الذي يذهب بكل شيء ، بكتابتي وبكل ما تحمله من التذكريات
واسكن لم يطل بي الوقت حتى ادركت ان هذا وهم آخر من اوهام
الحياة ، ورأيت بوضوح ، ان الفن زينة الحياة وسحرها . والحياة
بعد ان خسر سحرها نفوذه في قلبي ، كيف استطيع أن اجعل غيري
يرى هذا الساحر فيها ؟ عند ما كنت بعيداً عن حياتي الحقيقية ، تحملي
مظاهر الحياة الخارجية حيث شاءت وطاب لها الهوى ، فتقنعني ان
الحياة ذات معنى سام لا يمكن لاحد أن يبعده عنه ، كانت مظاهر
الحياة التي تتجدد في الفن والشعر تلذلي ومهبط الوحي على فكري
ولذلك كنت افرح أن أنظر الى الحياة بمرآة الفن . ولكنني عندما
جربت ان ادرك معنى الحياة ، وشعرت بضرورة الحياة لنفسي ،
صارت هذه المرآة سخرية وهزءاً ملؤها الالم والحزن . ولذلك فارقني

الطمانينة التي كنت اجدها في مرآة الفن وصرت أرى ان كتابتي
بلادة ومجلبة لزيادة في ياسي .

عندما كنت أو من في اعماق نفسي بان حياتي لها معنى بذاتها
كان ايماني يعمل على مسرتي وكمال فرحي . ولذلك كان كل ما في
الحياة من منير ومظلم من مضحك وفاجع ، من جميل مبهج وبشع
نخيف ، يسليني ويعزيني . ولكنني عندما عرفت ان الحياة فاجعة
رابعة لا معنى لها خسرت كل لذتي الماضية التي كنت ابصر نورها
في مرآة الفنون الجميلة . وكل ما في العالم مما يسميه الناس حلاوة صار
علقمًا في فمي ، وانا انظر الى التنين الفاجر فاه تبحني ، والجردن
الدائبين في قضم الفصن الذي يحملني .

ولم يقتصر الامر على هذا فقط . لاني لو عرفت ان الحياة
لا معنى لها واقتصرت القضية عند هذا الحد فقط ، لكنت قبلت
كل هذا ، واذركت انه قسمتي المعينة من الحياة . ولكنني لم اقدر
ان اقف عند هذه الحد . لاني لو كنت كرجل يعيش في غابة وهو
يعرف انه لا يوجد في الوجود غير غابته لكان حمل الحياة خفيفاً
على كتفي . ولكنني كنت ، كرجل ضال في غابة فسيحة الارجاء ،
وهو مع خوفه من مجرد التفكير في ضلاله يسعى الى طريق تنقذه
من ضلاله ، ومع انه يعرف ان كل خطوة يخطوها من مكانه تزيد
ضلالاً ، فهو يري نفسه مرغماً على المسير باقصى ما يكون من السرعة

هذا هو شقائي الاكبر في ذلك العهد المظلم . ولكي انخلص منه
كنت في كل هنية على اتم الاستعداد للانتحار .

الفصل الخامس

في مثل هذه الحال سألت نفسي قائلاً : « أليس من الممكن
اني قد اعرضت عن شيء ، اني فشلت ان ادرك شيئاً هاماً في
الحياة ؟ ام اليس من الممكن ان هذه الحالة التي تدعو الى اليأس هي
حالة عامة بين جميع الناس ؟ »

ولذلك عمدت الى جميع فروع المعرفة البشرية انشد ايضاح
للمسائل الخطيرة التي كانت تعذبني . فكنت افتش عن هذا الايضاح
بمرارة قلب ، وصبر طويل ، لاني لم اقدم على علمي بدافع التطفل
والرغبة في قتل الوقت بما لا طائل تحته ، بل سعيت اليه بهمة ونشاط
ليلاً ونهاراً ، واثقاً بان فيه خلاصي من آلام النفسية واوجاعي
الروحية . نشدته كما ينشد اليائس من النجاة نجاته ، وكما تنشد
الصحراء وابل المطر ولكنني لم اجد شيئاً .

نشدته في جميع جداول المعرفة . ولم يقتصر الامر على فشلي
في عملي فقط ، بل وثقت كل الثقة بان جميع الذين نشدوه قبلي لم
يجدوا شيئاً مثلي ، وبلغوا اخيراً كما بلغت انا الى الحقيقة الواحدة
الممتلئة يأساً : وهي ان الحياة لا معنى لها .

فقد فنتشت في جميع الجهات واني اشكر الحياة التي قضيتها بالدرس فوفرت لي الوسائل للتعرف بعلماء العالم وعظماء المفكرين في جميع فروع المعرفة، الذين لم يضمنوا عليّ بشيء مما في مكاتبتهم وفي رؤوسهم لازالة حيرتي . ولكنني لم ازدد الا حيرة . لان كل ما في العلم من الجواب على السؤال : « ما هي الحياة ؟ » عرفته من زمن بعيد .

اجل قد عرفت هذا منذ عهد بعيد ، قبل ان ادركت ان المعرفة البشرية قاصرة عن الجواب على هذا السؤال . فقد طالما خيل اليّ وانا أتأمل في تصريح العلم برزانة ودقة ان المادة لا علاقة لها بضايا الحياة ، طالما خيل اليّ انني قد ضللت عن نقطة هامة في الموضوع . ولذلك كنت اقف ذليلاً في حضرة المعرفة ، واهما في ان تصور الاجوبة التي كنت اعثر عليها ، او تقدم لي على هذا السؤال المهم لم يكن ناشئاً عن خطأ فيها بل انما نشأ على جهلي المطبق . ولكن هذه القضية لم تكن سخرية او وسيلة للتسلية وبمضيعة الوقت عندي ، بل كانت شغلي الشاغل في الحياة ولذلك رأيت نفسي مضطراً في نهاية الامر الى الاعتقاد بان هذه المسائل التي كانت تخطر لي هي اعظم المسائل التي تنشأ المعرفة البشرية الجواب عليها ، وان اهتمامي بها وبمعالجة الجواب عليها لم يكن خطأ مني ، بل انما هو خطأ من العلم الذي يدعى ان في مناله الجواب عليها .

ان السؤال الذي جعلني وانا في الحسنيين من عمرى على التعالق بفكرة الانتحار هو بالحقيقة ابسط الاسئلة التي تخطر على قلب

الإنسان ، وهو كائن في نفوس جميع الناس من الطفل الرضيع الى
الحكماء لان الحياة مستحيلة بدونه كما رأيت بالاختبار الشخصي
وها أنا اعبر عنه بما يأتي

ماذا سيصير بما اعلمه اليوم وما اعلمه غدا ؟ وما الذي تصير
اليه حياتي كلها ؟

او بعبارة اخرى :

لماذا يجب ان اعيش في هذا العالم ؟ ولماذا يجب ان تكون لي
مغبات ؟ ولماذا يجب ان اعمل لنفسي عملا ؟

او اننا نضعه بهذه العبارة زيادة في الايضاح :

هل حياتي من معنى يعجز عن القضاء عليه الموت الذي
ينتظرني بفارغ الصبر ؟

هذا هو السؤال الواحد المعبر عنه بصور مختلفة الذي نشدت
الجواب عليه في جداول المعرفة البشرية فوجدت ان المعرفة البشرية
تنقسم تجاهه الى قسمين : قسم سلبي وقسم ايجابي : — اما الجواب
على قضايا الحياة فلا اثر له لا في القسم السلبي ولا في الايجابي .

فالقسم الواحد من المعرفة البشرية ينكر وجود مثل هذا السؤال ،
ولكنه يقدم لك في الوقت نفسه اجوبة دقيقة على الكثير من
المباحث والاستنباطات التي يستقل بها لنفسه . وهم يطلقون على
هذا النوع من المعرفة اسم العلم الاختباري الطبيعي ويننون صرحه
على اساس الرياضيات . اما القسم الثاني من المعرفة فان انصاره

يقبلون هذا السؤال ولكنهم لا يجاوبون عليه وهم يطلقون على معرفتهم اسم الفلسفة المجردة ويننون هيكلها على اساس علوم ما وراء الطبيعة . اما انا فقد شعرت في فجر شبابي بميل كلي الى الدروس المجردة ولكن الرياضيات والعلوم الطبيعية غوتني بسحرها في فجر رجولتي . وقد كنت قبل ان خطر لي هذا السؤال عن معنى الحياة - السؤال الذي نشأ في اعماقي ونما نمواً عجبياً في فكري وهو يطلب الجواب عليه بفارغ الصبر - راضياً بالاجوبة التقليدية المصطنعة التي كانت تقدمها المعرفة البشرية لفكري .

ففي حقل الاختبار الشخصي كنت اقول لنفسي :
« كل شيء ينمو ويتغير ويتعرض للاضطراب والكمال ولهذا النمو وهذا التغير شريعة ثابتة سائدة . انت جزء من الكل . فاذا تعلمت كل ما تقدر عليه عن هذا الكل ، ودرست شريعة نموه وتغيره فانت ولا شك مدرك مركزك في هذه الوحدة العظيمة وبالغ معرفة نفسك ايضاً »

انني اخجل باعترافي هذا ولكن مثل هذا الرأي كان يرضيني ويقنعني في عهد مضى . ومما زاد في قناعتني هذه انني انا نفسي كنت اعمو في ذلك العهد ، فكانت ضلالي تتقوى وتكبر وذاكرتي تتسع وتزداد ثرواتها ، وقوى فكري وادراكي تسير الى الامام في كل يوم . واني بما كنت اشعر به من هذا النمو العظيم كنت اعتقد

ان شريعة نموي هذه هي بعينها شريعة الوجود ، وهي كافية لايضاح معنى حياتي .

ولكن جاء اخيراً العهد الذي وقف فيه نموي ، فشعرت انني عوضاً عن ان انمو واسير الى الامام صرت اضعف واسير الى الوراء بكل قواي . فقد ضعفت عضلاتي ، وبدأت اسناني واضراسي بالسقوط ، فرأيت ان شريعة النمو هذه لا يمكن ان توضح لي شيئاً بل ولا يمكن ان تكون موجودة قط . فادركت حينئذ ان الذي اطلقت عليه اسم الشريعة العامة لم يكن سوى تأثير بسيط حدث في حياتي في عمر خاص فقط .

فعمدت الى هذه الشريعة في الحال ادقق في درس طبيعتها ، فادركت بعد الدرس والفحص انه يستحيل ان توجد في الوجود شرائع للنمو الدائم . وان القائل بان كل ما في الوجود الغير المحدود تام ، متغير ، متبدل ، متكامل ، انما هو اقرب الى الجنون منه الى العقل فثبت لدي اخيراً ان هذه الكلمات لا معنى لها . لان البسيط والمركب او الماضي والمستقبل ، او الافضل والاردا ، لا اثر لوجودها في عالم الغير المحدود .

وهكذا ظل سؤالي الشخصي : « لماذا اعيش وارغب واعمل ؟ » سرّاً غامضاً لا جواب عليه . وقد عرفت اذ ذاك ان فروع المعرفة هذه لذيذ درسها ، شيق التأمل فيها ، ولكنها كانت تظهر ، بل ، الوضوح عجزها الكامل عن المجاوبة على مسائل الحياة : وهي كلما

ابعدت عن البحث في هذه المسائل المتعلقة بالحياة ازدادت قوة وحجة
وكما سمعت الى الاجابة على مسائل الحياة ازدادت غموضاً وخسرت
نفوذها وجاذبيتها للقلوب . واذا نظرنا الى فروع المعرفة التي
جربت الجواب على قضايا الحياة ، مثل علوم درس الاعضاء ووظائفها
والنفس وانفعالاتها ، والحياة ونشؤها ، والاجتماع وتطوره وشرائعه
فاننا نرى امامنا في الحال فقراً فكرياً هائلاً ، وغموضاً لا حذله ،
وادعاءً فارغاً بقدرتها على مجاوبة اسئلة لا قوة لها على الجواب عليها
وتناقضاً مطرداً بين المفكرين والمشتغلين بها احدهم للآخر ، بل
وواحد منهم لنفسه بين عشية وضحاها . واذا نظرنا الى فروع المعرفة
التي لم تهتم بقضايا الحياة ، بل حصرت جهودها بالاسمى وراء الجواب
المقنع على المسائل العلمية المختصة بها ، فاننا نضيق بين امواج بحر
الاعجاب بالذكاء البشري ، ولكننا نعرف قبل ذلك اننا لن نهتدي
الى الجواب المنشود على اسئلتنا المتعلقة بالحياة نفسها ، لان فروع
هذه المعرفة تتجاهل قضية الحياة وتعرض عنها كأن لا وجود لها .
واليك ما يقوله انصار هذه المعرفة : « نحن لا نقدر ان نقول
لك ما انت ، ولا لماذا تعيش في هذا العالم ، فاننا لا ندرس مثل
هذه المسائل . ولكن اذا اردت ان تعرف شرائع النور ، والالفة
الكيمائية ، وغموض الكائنات العضوية ، واذا رغبت في معرفة الشرائع
التي تسود على الاجسام المختلفة ، واشكال هذه الاجسام ،
وحجمها ، وعلاقتها اخدها بالآخر ، واذا اردت ان تعلم شرائع

فكرك فنحن قادرون ان تقدم لك اجوبة دقيقة واضحة على كل ذلك . « ان علاقة العلم المجرد بمسئلة معنى الحياة تلخص بما يأتي : سؤال : « لماذا اعيش في هذا العالم ؟ »

جواب : « ان ذرات صغيرة ، لانهاية لصغرها ، تترج بعضها ببعض ، بصورة غير متناهية في فضاء غير متناه ، وزمان غير متناه ، وتغير شكلها بصورة غير محدودة ولا متناهية . فاذا تعلمت شرائع هذه التغيرات ادركت في الحال لماذا تعيش في هذا العالم . »

كثيراً ما كنت اناجي نفسي في تأملاتي قائلاً : « ان العال الروحية قائمة على اصل شجرة حياة الانسان ونموه وهذه العال هي المباديء العظمى التي تسود حياته باسرها . واعظم ما تظهر به هذه المباديء العظمى في الدين ، والعلوم ، والفنون ، ونظم الحكومات المختلفة . وهذه المباديء سائرة الى الامام ، مرتقية الى العلاء درجة درجة ، الى ان يبلغ الانسان قنة صلاحه . اني عضو في المجتمع البشري ، وجزء من الانسانية ، ولذلك فان الواجب يدعوني ان اقوم بقسطي من العمل . الصالح ينشئ مبادئ الانسانية هذه وتعزيزها في حياة الناس . »

قد رضيت بهذه الافكار في ايام ضعفي العقلي . ولكن عندما عرضت لي قضية الحياة قضت كل هذه الآراء في اعماقي كأنها لم تكن . فاذا اعرضنا عن ايضاح السفسطة الخبيثة التي تستخدمها المعرفة التي من هذا النوع لتظهر النتائج الخاصة التي وصلت اليها من دروس جزئية

صغير من الانسانية كأنها نتائج عامة للانسانية قاطبة ، واذا اغمضناه الطرف عن التناقض الغريب ، الذي لا اول له يعرف ولا آخر يوصف ، بين زعماء هذه النظرية ، والخلاف المستحكم بينهم في تحديد مبادئ الانسانية ، فاننا لا نقدر ان نتجاهل الغرابة ، بل الجنون ، الذي في مثل هذا النوع من التفكير ، الذي يعلمنا اننا قبل ان نجيب على السؤال الذي يسأله كل انسان « من انا ؟ » او « لماذا اعيش في العالم ؟ » أو « ما الذي يجب علي عمله ؟ » يجب علينا اولاً أن نجابوب على هذا السؤال :

« ما هي حياة تلك البشرية أو الانسانية المجهولة منا ، التي لا نعرف منها سوى جزء صغير في قسم من الوقت ؟ »
فلكي يفهم الانسان حقيقة ذاته يجب عليه والحالة هذه ان يعرف حقيقة الانسانية السرية ، التي تتألف من ملايين الناس الذين يجهلون حقيقة ذواتهم مثله ..

اعترف بملء الامة انني آمنت من صميم قلبي بمثل هذا الرأي في عهد مضى من حياتي . وكان لي في ذلك العهد مبادئ عزيزة اكيف بموجبها تخيلاتني ، وطالما جاهدت لاؤلف بواسطتها نظرية جديدة تخواني ان انظر الى اوهامي نظرتني الى شريعة الانسانية المقدسة . ولكن حالما شعرت في اعماقي ، بالسؤال الذي نما في فكري عن معنى الحياة ، زالت هذه النظرية ولم يبق لها اثر في ذهني . فادركت في الحال انه كما ان في المعرفة الاختبارية او

الحسية علوماً حقيقية وعلوماً وهمية تجرب الجواب على مسائل خارجة عن دائرة صلاحيتها ، هكذا نجد في دائرة المعرفة النظرية فلسفات فاسدة كثيرة تحاول الجواب على ما هو فوق دائرة عملها.. ولذلك نرى المتمسكين بعلم الفقه ، وعلم الاجتماع التاريخي ، يشغلون بحل القضايا المتعلقة بالإنسان وحياته ، بواسطة حل القضية العظمى ، بالنسبة إلى هذه وهي قضية حياة الإنسانية العامة وقلمًا يتفق اثنان منهم على امر واحد .

ولكن كما أن الإنسان الذي يسأل بحرارة : « كيف يجب أن أعيش ؟ » لا يستطيع أن يقتنع بالجواب الذي تقدمه له العلوم الطبيعية ، وهو : « ادرس في زمان غير محدود ، وفضاء غير محدود ، الوحدة غير المحدودة ، للأجزاء الغير المحدودة ، المتحدة بعضها ببعض ، والمتغيرة بصورة غير محدودة ، ومتى عرفت كل هذا تدرك بالحقيقة معنى حياتك وحقيقتها ! » هكذا يعجز الرجل الخاص عن الاقتناع بالجواب الذي تقدمه له العلم النظري بقوله : « ادرس حياة الإنسانية العامة ، وحينئذ ولو جهلت بداياتها ونهايتها ومعرفة الأجزاء التي تتألف منها فأنتك بالحقيقة تعرف معنى حياتك . »

فالعلوم الطبيعية والعلوم النظرية سواء تجاه قضية الحياة ، لأن اهتمام أصحابها بمباحث خارجة عن دائرة ادراكهم يجعل آراءهم من هذا القبيل كثيرة الغموض ، ممتلئة بالاضلال العارضة ، والمناقضات المضحكة . فقضية العلوم الطبيعية هي تعاقب العلة

والمعلول في المظاهر المادية للحياة ، وفي منال المشتغلين بهذه العلوم
البلوغ الى جواب يصح السكوت عليه في هذه القضية . ولكن اذا
عرضت لهم قضية خارجة عن مالية الحياة ، تاهوا في ظلمة التخمين
والظنون وخطبوا خطب عشواء في ليلة ظلماء . وقضية العلوم النظرية
منحصرة في تصور وجود الحياة عن غير طريق تعاقب العلة
والمعلول في المظاهر المادية للحياة . فاذا عرضت للمشتغلين بهذه
العلوم قضية من هذا النوع ، وقفوا تجاهها حيارى لا يفقهون
ما يقولون .

للعلم الطبيعي اهمية وضعية فائقة ، لانها تظهر لنا عظمة القوة
الفكرية التي أعطيناها للبحث والدرس ، على شرط ان لا نخرج عن
دائرة مباحثها المادية المجردة وللعلوم النظرية اهمية كبرى في الحياة ،
لانها تظهر عظمة الخيال الكائن في فكر الانسان ، اذا حصره
صاحبه في دائرته المختصة به ، ولم يذهب الى ما ليس من خصائصه
خارج حدود علوم ما وراء الطبيعية والفلسفة .

اما الطريقة التي عبرت بها هذه العلوم عن سؤالنا الحاضر فكما
يأتي : « ما انا ؟ وما هو الوجود بأسره ؟ ولماذا وجدت انا ؟ ولماذا
وجد هذا الوجود ؟ » وقد اجابت هذه العلوم على هذا السؤال
بطريقة واحدة . مهما تنوع الاسم الذي يطلقه الفيلسوف على مبدأ
الحياة الكائن في اعماق وفي اعماق جميع الكائنات الحية ، سواء
دعاه فكراً ، أو جوهرأ ، أو روحاً ، أو ارادة فهو لا يبرح على

ممر العصور يعترف بأنه حقيقة ، ويصرح بان لي وجوداً حقيقياً ، ولكنه لا يعرف لماذا وجدت ، ولا يحاول ان يجاوب على هذا السؤال ، اذا شاء ان يكون مفكراً دقيقاً ، لان مثل هذا الجواب خارج عن دائرة ادراكه

اتني اسأل قائلاً : « ولماذا وجدت هذه الحقيقة ؟ وماذا يصير اليه كيانهما الآن وفي المستقبل ؟ » فالفلسفة لا تعجز عن الجواب على هذا السؤال فقط ، بل تجد نفسها مضطرة الى سؤال مثله . واذا شاء المشتغلون بها ان يحتفظوا بغايتها الاولى في عملها ، وجب عليهم ان يضعوا هذا السؤال بصيغته الواضحة ، ويثبتوا أبدأ على الاعتصام بمجاوبة السؤال الاول : « ما انا ؟ وما هو الوجود بأسره ؟ » هكذا : « كل شيء ولا شيء . » اما السؤال الثاني : « لماذا وجدت انا ؟ ولماذا وجد هذا الوجود ؟ » فيجب الجواب عليه هكذا « لا اعرف . »

على هذا السؤال كنت اخص اجوبة الفلاسفة النظريين ، وادرسها ، واقلبها ، وانا لا اجد جواباً على سؤالي : ولو اقتصر أمري في العلوم النظرية ، على ما كان في العلوم الطبيعية ، ان الاهتمام الى ان الجواب على سؤال خارج عن منطقة مباحثها — لكننت قنعت ورضيت ، ولكن هذه الاخرى — العلوم النظرية — زادت حيرتي ، لانها على رغم ما بذله فلاسفتها من الجهود الكثيرة ، اوضعت اخيراً

انه ما من جواب لسؤالي ، الذي وضعوه امام عيني بصورة اكثر
تعقيداً وصعوبة من قبل .

الفصل السادس

وفي تفتيشي عن حل لقضية الحياة ، كنت اشبه الرجل الضائع
في غابة ، يقبل على سهل فسيح ، فيتسلق شجرة ، وينظر من
اعلاها سهولاً واسعة لا تقف العين على آخرها ، ولا مأوى يلجأ
اليه فيها — يرى كل هذا فيدرك ان ليس فيها احد ينقذه ، فيرجع
الى الاحراج ، يتخبط في دياجير ظلمتها . ولا يهتدي الى ضالته
المنشودة .

على هذا المنوال ضلت بي السبيل في المعرفة البشرية ، فلم اجد
لي ملجأ ، لا في نور العلوم الرياضية والطبيعية ، التي كانت سبيلها
مفتوحة امامي ، ولا في ظلمة الفلسفة ، التي كانت تقودني كل خطوة
فيها من السيئ الى الاسوأ ، ومن المظلم الى الاكثر ظلاماً — الى ان
ثبت لدي أخيراً انه لم يكن ، وان يكون في الوجود شيء مما
افتش عنه . لاتي عندما تبعت نور العلم ، الذي يتوهم الناس قدرته
على حل قضايا الحياة ، كنت اجد نفسي ابعد كثيراً عن الحقيقة
التي أنشدتها . وكما وضحت سماء المعرفة المنبسطة فوق ، وزادت
تقاوتها ، وتعاضم سحرها وتعمقت في ادراك اسرارها ، والاطلاع

على دقائقها ، كنت اجدها بعيدة عن قضاء حاجتي ، قاصرة عن
مجاوبتي على مسائلي

ولذلك قلت في نفسي : « انتي اعرف الان كل ما تدعي
العلوم معرفته . ولكن الجواب على سؤالي المتعلق بمعنى حياتي
لا يمكن ان احصل عليه بهذه الطريقة . »

رأيت أيضاً ان الفلسفة ، التي قد تكون غايتها الاولى في
البحث عن المسائل التي ابحث انا عنها ، لم تقدر ان تقدم لي سوي
الجواب الذي قدمته انا لنفسي هكذا .

سؤال . « ما هو معنى حياتي ؟ »

جواب . « لا معنى لها . »

او بعبارة أخرى :

س : « ما مصير حياتي ؟ »

ج : « لا شيء . »

او س : « لماذا يوجد في الوجود كل ما هو موجود ؟ »

ج : « لانه موجود . »

عندما أقبلت على درس احد فروع المعرفة البشرية الوضعية
وجدت كثيراً من الاجوبة الدقيقة على مسائل لم يخطر لي قط ان اسألها :
مثل التركيب الكيماوي للمواد المتألفة منها النجوم ، وحركة الشمس
حول برج هرقل ، واصل انواع الاحياء ومنها الانسان ، والنرات
الصغيرة التي يتألف منها الاثير . ولكن الجواب الوحيد الذي قدمه

العلم في تفسير معنى حياتي كان كما يأتي
« انت كما تسمي حياتك ، اتحاد موقت من الذرات المختلفة ،
والحركة المشتركة بين هذه الذرات بعضها مع بعض قد اوجدت ما
تسميه حياتك . وهذا التجمع بين الذرات المتألف منها جسدك ،
تظل له حركته زمناً محدوداً ، تهدأ حركة الذرات بعده ، فتنتهي
بهدوئها هذه القوة التي تسميها حياتك ، وبانتهاها يقضى على جميع
هذه المسائل التي تشغل فكرك اليوم . انت كتلة متجمعة اجزاؤها
المجهولة بعضها مع بعض بطريق الصدفة . وهذه الكتلة تتجدد
اجزاؤها من حين الى حين . وهذا التجدد يطلق عليه الناس اسم
الحياة . ولكن هذه الكتلة لا تلبث ان تتلاشى ، فيبطل تجردها ،
وتزول معه كل المسائل والشكوك . »

هذا هو الجواب الذي حصلت عليه من الجهة الدقيقة للمعرفة
البشرية الوضعية ، التي لا تستطيع ، اذا اخلصت لمبادئها ، ان تقدم
غيره جواباً .

ومثل هذا الجواب يبرهن ، ان هذه العلوم لا تقدر ان تجاوب
على سؤالنا الحاضر . لانه بايضاحه لي ان حياتي ذرة محدودة من
غير المحدود وغير المشاهي لا يقتصر عن الجواب على سؤالي فقط ،
بل يقضي كل رجاء في قلبي بان حياتي معنى يستحق ان اعيش لاجله
اما الحل المظلم الذي تقدمه هذه العلوم الوضعية الطبيعية للتوفيق
بين نظرياتها ونظريات العلوم الفلسفية : بقولها ، « ان معنى الحياة

الحقيقي قائم في حصر قواها بالسعي وراء التقدم فانه لا يمكن أن ينظر اليه بعين الاعتبار .

فان العلوم النظرية الفلسفية المتمسكة بمبادئها الاساسية قد أجابت في جميع الاجيال ، كما تجابوب اليوم ، على هذا السؤال بالصور التالية :

« الوجود ابدى خالد وغير مدرك . وحياة الانسان جزؤ

صغير غير مدرك من الوجود الكلي الغير المدرك . »

وهكذا تركت كل الآراء التي لجأ اليها الناس ، للتوفيق بين

العلوم الطبيعية والعلوم النظرية ، واطلقوا عليها اسم العلوم الشرعية

والاقتصادية والتاريخية . لاننا في هذه العلوم أيضاً نرى تصوراً

كاذباً للتقدم والكمال . فبعد ان كان التقدم فيما مضى شاملاً كل

شيء أصبح الآن منحصراً في الحياة البشرية . والتقدم والكمال

سواء كانا في الكل أم في الجزء ، لا غاية لهما ، ولا محجة يسيران

اليها ، ولذلك لا يمكن ان يجابوبا على سؤالي .

من جميع ما تقدم رأيت ، ببله الوضوح ، ان العلوم النظرية

الدقيقة ، والفلسفة المخلصة لغايتها ومبادئها ، التي لا يهتم المشتغلين بها

ما يحصلون عليه من النفع أو الخسارة في سبيلها لا تستطيع أن تجابوب

على قضيتنا الحاضرة الا بالجواب الذي قدمه سقراط ، وشوبنهاور

وسايمان وبوذا .

قال سقراط وهو يستعد للموت : « نحن ندنو من الحق كلما

بعدنا عن الحياة . « فلماذا نحن الذين نحب الحق نسعى وراء الموت ؟
لكي نتحرر من الجسد والافواج التي ترافق الحياة فيه . فاذا كان
الحال هكذا ، فكيف يجوز لنا ان نخاف من دنو الموت ؟

الحكيم ينشد الموت في كل ساعة من حياته ، ولذلك فالموت
لا يرعب الحكماء . وهذا نفس ما عبر عنه شوبنهاور بقوله :

« ان المبدأ الاساسي لكل ما في الوجود هو الارادة . وفي
جميع مظاهر الوجود ، من قوات الطبيعة الغير العاقلة ، الى جهود
الانسان العاقل ، لا نستطيع أن نرى أثراً لوجود قوة غير هذه
الارادة . ولذلك لا نقدر أن نهرب من النتيجة المنطقية التالية : اذا
انكرنا هذه الارادة ، وقضينا على وجودها ، فان كل مظاهر الوجود
تزل في الحال بزوالها . فان لجميع الجهود ، والعواطف التي نراها
أمام عيوننا اليوم ، نهاية لا بد منها . وكل ما في الوجود من الكائنات
الحية ، والغير الحية ، صائر في يوم من الايام الى العدم ، بزوال
الارادة التي تريده ، وتحبه ، وتمتع به . فاذا بطل وجود هذه
الارادة ، فان الوجود بأسره يضمحل ويتلاشى . ولكن هذا المصير
الى العدم تعارضه طبيعتنا ، ونخالفه رغبتنا في الحياة ، التي تعمل على
وجودنا ، ووجود العالم الذي نعيش فيه . فالوجود بأسره ما هو
عند التحقيق الا هذه الرغبة التي في أعماقنا - الرغبة في الحياة التي
تجملنا الى الخوف من المصير الى العدم . وهذه الرغبة العظمى في
الحياة لا توضح لنا من أسرار حياتنا سوى : ان الحياة كلها هي هذه

الارادة أو الرغبة في المعيشة واكثر من هذا لا نعرف شيئاً لاجل هذا نرى اننا بعد انتهاء رغباتنا الكثيرة ، والقضاء الاخير على ارادتنا . لا يبقى من أثر حياتنا وتصبح لا شيء . وكل ما في هذا الوجود من الكائنات ، والشموس ، والمجرات هو لا شيء بعد زوال ارادتنا أو حياتنا : لان وجوده ، أو بالحري شعورنا بوجوده ناشئ عن وجود هذا الشعور فينا ، ولذلك فهو زائل بزوال هذا الشعور فينا واليك ما يقوله سايجان في هذا الموضوع : باطل الابطال يقول الجامعة . باطل الابطال كل شيء باطل . أي فائدة للبشر من جميع تعبهم الذي يعانونه تحت الشمس ؟ جيل يمضي ، وجيل يأتي ، والارض قائمة مدى الدهر . . . ما كان فهو الذي سيكون ، وما صنع فهو الذي سيصنع ، فليس تحت الشمس شيء جديد . رب أمر يقال عنه أنظر هذا جديد . بل قد كان في الدهور التي سلفت قبنا ليس من ذكر لما سبق ، ولا الذي يستقبل يكون له ذكر عند الذين يأتون من بعده

» أنا الجامعة ، ملكت على اسرائيل باورشليم . فوجهت قلبي ليطالب ، ويبحث بالحكمة ، عن كل ما صنع تحت السماء : فاذا هو عناء ردي . جعله الله لبني البشر ليعتوا به . رأيت جميع الاعمال التي عملت تحت الشمس . فاذا الجميع باطل وكآبة الروح . لقد ناجيت قلبي قائلاً : هانذا قد عظمت ، وازددت حكمة فوق كل من كان قبلي باورشليم ، واكثر قلبي من مطالعة الحكمة والعلم . ووجهت

قلبي لمعرفة الحكمة ، ومعرفة الجنون والحماقة ، فعرفت ان هذا أيضاً
كآبة الروح . لان في كثرة الحكمة كثرة الغمة ، ومن ازداد علماً
فقد ازداد كرباً .

» ثم ناجيت قلبي قائلاً : هلم قابلك بالفرح . واذا هذا أيضاً
باطل . قلت للضحك فيك جنون ! وللفرح ، ماذا تنفع ؟ أجبت
في قلبي ان أعلل جسدي بالخر ، وقلبي متصرف بالحكمة ، وان اختير
الحماقة حتى أرى ما الخبر لبني البشر فيصنعوه تحت السماء مدة أيام
حياتهم . فاتخذت أعمالاً عظيمة : بنيت لي بيوتاً ، وغرست لي كروماً
وانشأت لي جنات وفراديس ، وغرست فيها اشجاراً من كل عمر
وصنعت لي برك ماء لاسقى بها الحماثل النامية الاشجار . واقتنيت
عبداً واماء ، وكان بيتي عامراً بالبنين ، ورزقت مواشي كثيرة
من البقر والغنم ، حتى فقت جميع الذين كانوا قبلي باورشليم . جمعت
لي فضة وذهباً ، مع أموال الملوك والاقاليم ، واتخذت لي مغنين
ومغنيات واصناف لذات بني البشر ، وحليلة وسراري ، فزدت
عظمة وعموا على جميع الذين كانوا قبلي باورشليم . والحكمة أيضاً لم
تبارحني ، وكل ما ابتغته غينائي لم ادعه يفوتها ، ولا منحت قلبي
من الفرح شيئاً ، بل فرح قلبي بكل تعبي ، وكنت احسب ان ذلك
هو حظي من تعبي كله . ثم التفت الى جميع أعمالتي التي عملت يداي
والى ما غانيت من التعب في عملها ، فاذا الجميع باطل وكآبة الروح
ولا فائدة في شيء . نجت الشمس !

« ثم التفت لانظر في الحكمة ، والجنون ، والحماقة ... فرأيت
ان الحكمة تفضل الحماقة ، كما ان النور يفضل الظلمة .

للحكيم عينان في رأسه ، أما الجاهل فيسير في الظلمة . لكنني
علمت أيضاً ان حادثة واحدة تحدث لكليهما . فقلت في قلبي : ان
الذي يحدث للجاهل يحدث لي أنا أيضاً . اذن ، فلم حكمتي هذه الوافرة
فقلت في قلبي هذا أيضاً باطل ! فانه ليس من ذ كر للحكيم وللجاهل
كليهما الى الابد ! اذ في الايام الآتية كل شيء ينسى . وا اسفا !
يموت الحكيم كالجاهل !

« فذكرت الحياة اذ ساءني العمل الذي يعمل تحت الشمس
لانه كله باطل وكآبة الروح ! وكرهت جميع ما عانيت تحت الشمس
من تعبني الذي سأتركه لانسان يخلقني ... فأني فائدة للانسان من
جميع تعبته ومن كآبة قلبه التي عاناها تحت الشمس ؟ فانما أيامه كلها
أحزان ، وأعماله كروب ، حتى في الليل لا يستريح قلبه . هذا أيضاً
باطل ! ليس في يد الانسان أن يأكل ويشرب ويحني نفسه ثمرة
تعبه : فاني رأيت هذا انما هو من يد الله . .

« كل يصاب بكل . وحادث واحد للصديق والمنافق ، للصالح
والطاهر وللنجس . للذابح ولغير الذابح . مثل الصالح مثل الخاطي
والذي يحلف كالذي يتقي الحلف . وشرب ما يجري تحت الشمس
ان حادثاً واحداً للجميع ، فتمتلي قلوب بني البشر من الخبث ،
وصدورهم من الجنون في حياتهم ، وفيما بعد يصيرون الى الاموات »

« ان كل من يشارك الاحياء في أية حالة كانت ، له رجاء لان الكلب الحي خير من الاسد الميت. والاحياء يعلمون انهم سيموتون. أما الاموات فلا يعلمون شيئاً وليس لهم من جزاء بعد، اذ قد نسي ذكرهم . حبهم ، وبغضهم ، وغيرتهم ، قد هلكت جميعاً ، وليس لهم حظ بعد في شيء مما يجري تحت الشمس »
هكذا تكلم سليمان أو الرجل الذي كتب سفر الجامعة وهذا

ما يقوله حكيم هندي عظيم

حدث مرة ان سيكاهوني ، الوارث الشرعي السعيد لعرش مجيد ، الامير الذي حظر عليه ان يرى المرض والشيخوخة والموت فيما هو يسير خارج قصره ، رأى شيخاً راعب المنظر ، محدودب الظهر ، لا أسنان في فمه . واذ رأى الامير ، الذي لم يرقبل ذلك شيخاً قط ، هذا المنظر البشع تعجب في ذاته ، وسأل سائق عربته جليلة الامر ، ولماذا كان ذلك الرجل في تلك الحالة المحزنة . وعندما عرف ان هذه الحالة شاملة لجميع الناس ، وانه هو نفسه ، الامير الشاب انثذ ، سيصير يوماً ما الى تلك الحالة أمر سائق العربة ان يرجع به الى قصره ليتسع له الوقت للتفكير في كل هذا . وهناك دخل مخدعه ، واغلق بابه ، وشرع يفكر في هذه الحالة الكئيبة وحيداً منفرداً عن الناس . ولعله اهتدى الى فكر حصل بواسطته على التعزية ، ولذلك نراه مرة ثانية يخرج بعربته سعيداً فرحاً طالباً للفرحة . بيد انه لم يبعد كثيراً ، حتى رأى مريضاً يئن متوجعاً ،

وقد فارقتة صحته ، وذوت نضارة وجهه ، فاظلمت عيناه ، وتغير لون بشرته . واذا رأى الامير ، الذي لم يعرف شيئاً عن المرض من قبل ، ذلك المريض سأل سائق العربّة عن حقيقة الامر فاخبره ان المرض ضعف يطرأ على جميع الاجساد ، وانه هو الامير السعيد ، الفرح بالحياة ، قد يمرض في ساعة لا يعلمها ، ويصير الى مثل الحالة التي كان فيها الرجل المريض الواقف أمامه . فحزن الامير اذ سمع كل هذا ، وفارقتة رغبته في النزهة ، وأمر السائق أن يرجع به في الحال الى منزله . وهناك نشد تعزيتة وسلام فكره . وقد يكون وجدهما الى حين ، لاننا لا نلبث ان نراه في العربّة للمرة الثالثة طلباً للنزهة خارج القصر . ولكنه رأى في هذه المرة شيئاً جديداً ، رجالاً يحملون محملاً ويسرون به في الشارع . فسأل السائق قائلاً : « ما هذا ؟ »

فأجابه . « رجل ميت »

قال الامير : « وماذا تعني بقولك رجل ميت ؟ » فاخبره ان الرجل الميت هو رجل مثل الذي يحمله الناس في المحمل أمامه . « فنزل الامير من العربّة وأمر الحاملون ان يقفوا فدنا من المحمل ، ونزع عنه الغطاء ، ونظر في الجثة التي فيه . ثم سأل قائلاً : « وماذا سيصير اليه هذا الرجل ؟ » فأخبروه ان الجثة ستدفن في الارض . فقال لهم : « ولماذا ؟ »

فقالوا : « لانه لن يعيش فيما بعد وسيخرج الدود والنتن منه اذا لم يدفنوه . »

فسألهم الامير : « وهل هذه قسمة عامة لجميع الناس ؟ وهل أصير أنا الى مثل هذه الحالة ؟ هل ادفن تحت الارض فانتن وامسى مطعما للدود ؟ »

فقالوا : « نعم »

فصرخ بالسائق قائلاً : « ارجع بي اذن الى منزلي فلن أخرج منه بعد اليوم ، ولن أعرف النزهة في حياتي . »

وهكذا نرى أن سيكاموني لم يجد طمأنينة في الحياة ، ولذلك ثبت لديه انه شر عظيم جداً ، وبذل كل قوته ليحرر نفسه واصدقاءه منها لكي لا تتجدد بعد الموت بل تستأصل من جذورها ههنا على الارض . يمثل هذا يعلم جميع حكماء الهند .

والى القراء الادباء الاجوبة التي رأت الحكمة البشرية ان تقدمها على قضية الحياة .

فالحكيم سقراط يقول : « حياة الجسد در وكذب ، ولذلك فان القضاء على هذه الحياة خير يجب أن نسعي اليه بامرنا »

والحكيم الالماني يقول : « الحياة هي عكس ما يجب أن تكون فهي شر كبير عوضاً عن أن تكون خيراً كبيراً . والعبور منها الى لا شيء هو الخير الوحيد في الحياة . »

وسليمان الحكيم يقول : « كل ما في العالم : الحماسة والحكمة ،

الغنى والفقر ، والفرح والحزن ، كل هذا باطل ولا قيمة له فالإنسان
يولد ويموت ولا يبقى منه شيء ، وهذا أيضاً باطل .
والحكيم الهندي يقول : « أن الذي يعرف أن الالام ، والأمراض
والشيخوخة ، والموت كؤوس لا بد من شربها يستحيل عليه أن
يعيش برغد . ولذلك يجب أن تتخلص من الحياة وتنجو من
امكانيتها .

والذي قاله هؤلاء الحكماء العظماء قد فكر فيه ملايين الملايين
من الناس وشعروا به . وأنا أيضاً فكرت فيه وشعرت بمثله
الحياة كلها .

وهكذا فإن سياحتي في حقول المعرفة البشرية لم تقتصر على
الفشل في شفاثي من يأس بل زداتني يأساً وشكاً . فالفرع الواحد
بمن المعرفة يقف صامتا تجاه السؤال عن معنى الحياة . والفرع الثاني
أجابني جواباً صريحاً ثبت يأسى ، وأراني أن الحالة التي أنا فيها
لم تكن نتيجة لاضلالي أو ضعفاً طرأ على دماغي ، بل إنما كانت على
العكس من هذا تؤكد . لي أنني إنما أفكر بدقة ، وإن آرائي متفقة
مع النتائج الكبرى التي انتهى إليها أقدر مفكري الإنسانية .
لذلك لم أستطع أن أخدع فكري . كل شيء باطل وكل مولود
امرأة تعس شقي ! الموت خير من الحياة ! والحكيم من ينزل عن
كتفيه حمل الحياة الثقيل فيتخلص من الحياة مدى الدهر .

الفصل السابع

وبعد أن فشلت عن الاهتداء الى ضالتي في المعرفة والعلم
والفلسفة شرعت أنشدتها في الحياة نفسها ، مؤملاً أن أجدها في
الناس المحيطين بي . فبدأت أراقب الرجال الذين مثلي ، والاحظ كيفية
معيشتهم ، وموقفهم تجاه السؤال الذي حيرني وقادني الى اليأس :
والى القارئ الأديب النتيجة التي وجدتها بين من هم مثلي في
مركزهم الادبي والاجتماعي

وجدت أن أبناء الطبقة التي انا منها يلجأون الى وسائل اربع
للهرب من الحياة الرائعة التي كسافها كلنا
واول هذه الوسائل الجهل . فان أصحابه لا يدركون ، ولا
يريدون أن يفهموا ، أن الحياة شر ، وكل ما فيها باطل وقبض
الريح . أن أبناء هذه الطبقة ، واكثرهم من النساء أو الشبان الصغار
وبعض الرجال الاغنياء ، لم يفهموا قضية الحياة ولم ينظروا اليها
كما نظر اليها شوبنهاور وسايان وبودا . فهم لا يرون الوحش الذي
ينتظرهم ليفترسهم ولا الجرذين اللذين يقرضان الغصن المتعلقة عليه .
حياتهم ، ولذلك يلحسون نقط العسل القليلة التي يشاهدونها حوالىهم
برغبة ولذة . ولكنهم يلحسون هذا العسل الى أجل مسمى ، لانهم
ان يلبثوا أن يجدوا ما يلفت انظارهم الى الوحش ، والجرذين ،
وحينئذ تفارقهم لذتهم وزغبتهم معا . من هؤلاء وامثالهم لم اقدر

أن أن تعلم شيئاً ، لان الانسان يتعذر عليه أن يتجاهل ما هو واثق بمعرفته .

ووسيلة الهرب الثانية هي الوسيلة التي يلجأ اليها الشهبانيون وعباد اهلوائهم الجامحة . وهي تقضي على اصحابها أنهم بالرغم من معرفتهم أن كل ما في الحياة من اللذذ والجمل باطل عند التحقيق ، يجب أن يغمضوا عيونهم عن رؤية الوحش والجوردين ، ويطلبوا في الوقت نفسه كل ما يمكنهم الحصول عليه من عسل الحياة ، وخصوصاً حيث يوجد الكثير منه . وقد اشار سليمان الى هذا بما يأتي :

« فمدحت الفرح ، لانه ليس في يد الانسان خير تحت الشمس غير أن يأكل ويشرب ويفرح ، فهذا يثبت له من تعبته أيام حياته التي منحها الله له تحت الشمس . . فأذهب كل خبزك بفرح ، واشرب خمرك بقلب مسرور ... تمتع جميع أيام حياتك الفانية ، بالعيش مع المرأة التي احببتها وأوتيتها تحت الشمس ، لتقضي ايامك الفانية فان ذلك حظك من الحياة ، ومن تعبك الذي تعانيه تحت الشمس كل ما تصل اليه يدك من عمل فاعمله بجميع قوتك ، فانه لا عمل ، ولا حسابان ، ولا علم ، ولا حكمة ، في القبر الذي انت صائر اليه . » على هذه الصورة يقضى اكثر أبناء طبقتنا حياتهم . فان الحالة

التي يوجدون فيها توضح لهم الجميل في الحياة ، وتحجب عن عيونهم البشع والشرير . وما في آدابهم من البلاهة يمكنهم من نسيان حقيقة هم في حاجة الى معرفتها : وهي ان كل الفرص التي يقدمها

لهم مركزهم هي شواذ لا يقاس عليه ، لان الذي تمتع به سليمان من طيات الارض لا يتاح الا للقليلين من اصحاب الملايين . وان مقابل كل رجل له ألف امرأة مثل سليمان يوجد ألف رجل لامرأة له ، وكل قصر عظيم يحتاج ، قبل أن يتم بناؤه ويتمتع به صاحبه ، الى ألف رجل يبنونه باعراقهم واتعابهم ، وان الفرصة التي جعلتني مثل سليمان اليوم كثيراً ما تنقلب فتجعلني كعبيد سليمان في الغد . ولكن حماقة هؤلاء الناس ، وبلادة تصورهم ، تساعدان على وضع برقع غليظ امام عيونهم فيتعامون عن رؤية العوامل التي قضت على سعادة بوذا : وهي المرض ، والشيخوخة ، والموت ، وكما لا بد منها ، أن لم يكن عاجلاً فآجلاً . ومتى جلت أنزلات الستار على مسرح جميع الملذات والافراح

يبد ان الاكثرية الساحقة من ابناء هذه الايام لا تريد ان تفكر الا بهذه الطريقة . ومع أن بين هذه الاكثرية فريقاً يطلق على حياة رفقائه اسم الفلسفة الوضعية ، محمولا الى هذه التسمية بعبارة فكره وبلادة خياله فان هذا لا يفصلهم في عقيدتي عن أوائك الذين يلجسون العسل لكي يلتهموا به عن رؤية الخطر المحيى بهم . انني لم استطع اقتناء خطوات هؤلاء الحق في عقيدتي ، لانه لم يكن لي بلادة تصورهم ، وحماقة خيالهم ، ولذلك لم أقدر أن أفعل فعلهم ففاني ، كجميع الراغبين في المعيشة المصحوبة بالفهم ، لم أتمكن من

تحويل عيني عن الجرذين والوحش بعد أن رأيتهما وعرفت الخطر الذي يعرضني له عملها .

والوسيلة الثالثة للهرب كائنة في الالتجاء الى القوة والعزم . وهي تأمر باقضاء على الحياة بعد معرفة شرها وبطلانها . ولكن الذين يعملون بها هم اندر من بيضة الديك ، وهم مخاريق بقوتهم وعزيمتهم . فهم ، اذ يدركون رداة الاضحوكة التي تمثل على حساب الاحياء ، ويعرفون أن سعادة الاموات أوفر من سعادة الاحياء ، وان عدم الوجود خير من الوجود ، يقدمون في الحال على وضع حد نهائي لهذه الاضحوكة التي يسمونها حياة باية طريقه . ممكنة : — حبل حول العنق ، أو ماء يغرقون فيه ، أو سكين يقطعون به قلوبهم ، أو قطار يقفون في طريقه فيذهب بهم ويريحهم من شقايتهم أن عدد الذين يقدمون على مثل هذا العمل في طبقتنا الاجتماعية يتزايد في كل يوم ، وأكثر أبنائه من الشبان والشابات الذين بلغوا شأوا واسعا من العلم ، ولكن مداركهم الداخلية لم تنضج بعد في أعماقهم قد رأيت هذه الوسيلة الثالثة للهرب من الحياة أفضل الوسائل ووددت لو في طوقي أن اعمل بها .

والوسيلة الرابعة للهرب من الحياة قوامها الضعف . وخلاصتها أن صاحبها ، مع علمه بشر الحياة وبطلانها ، فهو يواظب على المحافظة على حياته ، على رغم معرفته أنها عقيمة لا نتيجة وراءها . ان أبناء هذه الطبقة يعلمون أن الموت أفضل من الحياة ، ولكن

ليس لهم من القوة القسط الكافي لمساعدتهم على العمل بما يعرفون .
ولذلك يتمكسون بمخاوفهم ، ويحجمون عن الانتحار ، مترقبين
وسيلة تريحهم من شر الحياة من غير أن يقتلوا ذواتهم . فالضعف
وحده يعمل على مساعدة هؤلاء للهرب من شر الحياة ، لا شيء اذا
عرفت ما هو الافضل لراحتي ، وادركت انني قادر ان أناله اذا
شئت فلماذا لا أناله ؟ هذه هي الطبقة التي كنت أحد أبنائها .
يمثل هذه الطريقة ، وبهذه الوسائل الأربع ، ينقذ أبناء طبقتي
ذواتهم من تناقض مزعج في الحياة . ومهما أجهدت فكري فاني
اظل قاصراً عن الاهتداء الى طريق جديدة غير هذه الطرق الاربعة
فالطريقة الاولى تقضي بان نتجاهل شر الحياة وبطلانها وتفاهتها ،
ونغمض عيوننا عن رؤية الحقيقة القائلة بان الموت خير من الحياة
أما أنا فلو لم اعرف هذه الحقيقة لكان الامر سهلاً علي ولكنني
بعد ان رأيتها ، لا استطيع أن اغمض عيني عن رؤيتها .

والطريقة الثانية تقضي بان نتمتع بالصالح في الحياة ، من غير
أن نفكر في المستقبل . ولكنني لم أقدر أن افعل هذا قط . لانني ،
كسيكاموني ، لا استطيع أن أسير بعربي وراء ملذاتي بعد ان عرفت
ان في الحياة مصائب مثل الشيخوخة والمرض والموت . ان خيالي
كان قاصراً عن البلوغ الى هذه الحالة ، وفوق ذلك لم اقدر ان اقنع
بالملاذات المؤقتة التي لا تبهجني ساعة حتى تؤلني عاما كاملا .

والطريقة الثالثة تقضي على الانسان الذي يعرف ان الحياة

شعر و حماقة ان يضع لها حدا بالانتحار . قد فهمت هذه واحببتها ،
ولكن لا ادري كيف كنت اهرب من الانتحار ولا أقدم عليه
لسبب مجهول عندي

والطريقة الرابعة تقضى بان تقبل الحياة كما وصفها لنا شوبنهاور
وسليمان ، عالمن انها اضحوكة بليدة مزعجة ، وان مجرد الحياة برهان
على الهزء والسخرية بصاحبها . ولكن مع كل ذلك يجب ان تقبلها
كما هي ، مغتسلين ، لا بسين ، آكلين ، شاربين ، متكلمين ، ومؤلفين
كتباً أيضاً . ومع ان هذا المركز كان بعيدا عن فكري فقد رأيته
أقرب الجميع الى قلبي

غير انني ادركت الآن انني لم اقتل نفسي في ذلك العهد لاني
كنت اشعر في أعماقي بصورة خفية مضطربة ان آرائي مشوشة
مغلوطة . فمع انني كنت اشارك الحكماء في رأيهم بان الحياة لا معنى
لها ، فقد كنت في الوقت نفسه اشعر بشك في جميع النتائج التي
وصلت اليها بدرسي واستطيع ان أعبر عن هذا الشك بما يأتي :
« يحدثني عقلي ان الحياة مناقضة للعقل . فان لم يكن في الوجود
شيء أعلى من العقل ، والحقيقة أنه ليس في الوجود اسمى من العقل
أو بالحري ليس لنا برهان على مثل هذا ، فالعقل اذن هو الذي خلق
لي الحياة . فكيف يستطيع هذا العقل ، والحالة هذه ، ان ينكر وجود
الحياة التي هو اوجدها ؟ واذا نظرنا الى الموضوع من الجهة الثانية
نقول : لو لم تكن لي حياة لما كان لي عقل ، ولذلك فان العقل بحكم

الطبع هو ابن الحياة . فالحياة هي كل شيء . العقل هو ثمرة الحياة
وهذا العقل نفسه ينكر الحياة التي أثمرته شجرتها .
لأجل هذا شعرت ان في طريقة تفكيري خطأ واضحاً . فقلت:

في نفسي : —

« الحياة ولا شك بدون معنى . وهي شر وحقارة . ولكنني
قد عشت ما مضى من عمري ، ولا أزال حياً حتى الساعة ، وهكذا
عاش جميع أبناء الجنس البشري وما برحوا يعيشون . فكيف يكون
هذا . لماذا يعيش جميع الناس وهم قادرون متى شاءوا ان يموتوا
أم هل أنا وشو بنهور وحدنا أعطينا الفهم والعقل لنذكر فراغ الحياة
وشرها وبطلانها ؟ »

ان رؤية بطلان الحياة سهلة جداً ، وطالما كانت واضحة لا بسط
البسطاء . ولكن الناس عاشوا وما زالوا يعيشون في كل ساعة .
ولكن لماذا يعيش الناس . ولا يفكرون البتة في صواية الحياة
التي يحيوها ؟

ان معرفتي التي حصلت بها بالدرس والبحث ، وايدتها حكمة أحكم
الحكماء ، أظهرت لي ان كل ما على الارض من الكائنات العضوية
وغير العضوية تحيط به وبوجوده حكمة سامية ، وليس من حماقة الا
في حياتي وحدها . ولكن أو تلك المجانين ، ملايين الملايين من العامة
السادجة ، لا يعرفون شيئاً عن تركيب الكائنات العضوية ، وغير

العضوية في الوجود ، ولكنهم يعتقدون ان حياتهم خاضعة لشرائع
حكيمية معقولة جداً .

ثم فكرت في نفسي قائلاً : « ولكن من يدري ، فلعل هنالك
أمراً لم اقف عليه بعد ويجب ان ادرسه . فان الجبل يتصرف في
العالم مثل تصرف الحاضر فالجبل يقرر بملء الافة كل ما يعرفه
ويثق بصحته فاذا رأى شيئاً لا يعرفه يصرح في الحال انه بليد
لا معنى له . فالانسانية بجماعها قد عاشت على ممر العصور ، وهي
عائشة الآن ، كأنها تدرك معنى الحياة وهي لو تدرك معنى الحياة
لما استطاعت ان تعيش . أما انا فاقول ان الحياة بأسرها لا معنى لها
ولذلك لا اقدر ان اعيش . »

ما من أحد يمنعنا ان ننكر الحياة بالانتحار . ولكن الذي يقتل
نفسه ينقطع عن البحث في الحياة والمناظرة في موضوعها . اذا كنت
تكره الحياة فاقتل نفسك . واذا كنت تعيش ولا تفهم معنى حياتك
فضع لها حداً ، واقنع عن حديثك وكنايتك انك غير قادر ان تفهم
حقيقة الحياة . انت داخل الى جماعة فرحين مسرورين قانعين
بافراحهم ، عارفين جميعهم ، ما يعملون ، ولماذا يعملونه . وانت
وحدك مقطب الحاجبين ، مضطرب الفكر ، تثار على كل شيء
حولك . فلماذا لا تخرج من تلك الجماعة وتربح نفسك وغيرك ؟
وفوق كل هذا فمن نحن ، الذين بعد ان اقتنعنا بضرورة الانتحار
لا نجرؤ على الاقدام عليه ، لضعفنا وعدم اجماع رأينا أو بعبارة

أوضح لبلادتنا وحققتنا التي نسير مبشرين بها كالمجانين الذين يحملون حجبتهم معالقة حول أعناقهم.

ان حكمتنا مهما كانت مبنية على الحقيقة لم تمنحنا معرفة لحقيقة معنى الحياة ، ولكن الانسانية بأسرها لا تشك في ان الحياة لها معنى بنفسها .

والحقيقة التي لا مرية فيها ان الناس منذ أقدم ازمنة التاريخ المعروفة قد عاشوا ، ومع أنهم عرفوا كل المسائل التي خطرت لي عن بطلان الحياة وشرورها ، فقد أعطوا الحياة معنى مختصاً بهم .

منذ بدء حياة الناس اتخذ كل منهم رأياً لنفسه في حياته، وما رحوا يعيشون ، ولكل منهم رأيه في الحياة حتى يومنا الحاضر . وكل ما في فكري ، وما هو خارج عني طبيعياً كان أم غير طبيعي ، فهو بالحقيقة ثمرة من أشجار معرفتهم . والقوة الفكرية التي حكمت بها على الحياة وقضيت عليها بالزوال إنما هي بالحقيقة مستمدة منهم وليس مني . فهم السبب الاولي في ولادتي وتربيتي وتهذيبي . وهم الذين اقتلعوا الحديد من الارض ، وعلموا ابناءهم قطع الاشجار وتشحيلاها ، وتدجين البقر والخيول ، وهم الذين أوجدوا الزراعة ، والصناعة ، وقربوا الناس بعضهم من بعض ، وربطوا مصالحتهم بالقوانين والشرائع العادلة ، فجعلوا احياتنا شكلاً منظماً ، وعلمونا فوق كل هذا كيف نفكر وكيف نتكلم . وانا صنع أيديهم ، وابن

عنايتهم وجهودهم ، وتلميذ أفكارهم وأقوالهم ، أتى اليوم لابرهن لهم ان وجودهم بكامله لم يكن له معنى .

حينئذ قلت في نفسي : « انني ولا شك مخطيء في تفكيري . »
ولكنني مع كل هذا لم اهتم الى الغلط الذي ارتكبته .

الفصل الثامن

كل هذه الشكوك ، التي أقدر الآن ان أعبر عنها بوضوح ، لم اكن إذ ذاك قادراً ان أعبر عنها قط . لاني في ذلك العهد المظلم لم أعرف اكثر من أن أشعر بان النتائج التي وصلت اليها عن بطلان الحياة ، مع كل ما يحيط بها من البراهين المنطقية ، ويؤيدها من آراء عظماء المفكرين . فان فيها خطأ لم أعرف موضعه . أما اذا كان الخطأ في النتيجة نفسها ، أم في طريقة وضع المسألة من أصلها ، فلم أعلم . وكل ما عرفت : انني كنت أشعر ان عقلي على شدة اقتناعه بالنتيجة التي بلغتها ، لم يكن كافياً وحده للعمل بهذه النتيجة

ولذلك لم يقدر فكري أن يحملي الى العمل بما اعتقدت صحته وضرورته : يعني قتل نفسي .

واني لا أقول الصدق ، اذا قلت ان عقلي وحده قادني الى الحالة التي كنت فيها وحال دون انتحاري . فالعقل كان يعمل بغير انقطاع ، ولكن هنالك قوة غير العقل كانت تعمل معه أيضاً ،

قوة أستطيع أن أطلق عليها اسم الشعور بالحياة . فقد عملت هذه القوة في أعماقي ، فكانت تقرر مركزي العملي تجاه جميع القضايا التي يعالجها فكري ، وهي التي نشلتني من هوة اليأس التي سقطت فيها وعملت أخيراً على تغيير أفكاري بأسرها . فقد علمتني هذه القوة بملء الوضوح انني مع مئات من مثلي لا نستطيع أن نؤلف الانسانية بأسرها وهي نفسها أظهرت لي انني ما برحت اجعل حقيقة الحياة الانسانية

عندما كنت أراقب الدائرة الضيقة التي تجمع أقراني في المركز الاجتماعي ، كنت أرى أناساً لم يفهموا السؤال الذي أسأله وغيرهم من الذين أدركوا حقيقة هذا السؤال ولكنهم كانوا يخفون . ادراكهم له بسكرهم بخمرة الحياة . وغيرهم من الذين أدركوه ولكنهم قتلوا ذواتهم ، وأخيراً أولئك الذين فهموا حقيقة السؤال ولكنهم اضعفهم عاشوا بقية عمرهم في ظلمة الشك واليأس . ولكنني لم أر غيرهم . وكان يخيّل الي أن هذه الدائرة الضيقة المتألفة من المتعاليين والاعنياء والكسالى الذين كنت واحداً منهم ، هي الانسانية بأسرها ، وأن بلايين الناس ، العائشين خارجاً عنها هم حيوانات وليسوا بشراً ومهما بدأ لي اليوم مثل هذا الموقف غريباً ، جنونياً ، بعيداً عن تصور العقل الصحيح ، - انني انا اذ أفكر في الحياة أستطيع أن أتجاهل وجود حياة الانسانية العظمى المحيطة بي من كل جنب واقع في الخطأ القاتل بان حياة سليمان أو شوبنهاور أو حياتي هي

الحياة الطبيعية الحق ، وأما حياة البلائين الأخرى من الناس فهي حمافة لا أهمية ولا شأن لها مهما بدأ لي كل هذا غريباً اليوم ، فهو الرأي الذي كنت أعتقد بصحته في ذلك الحين . فقد تملكني المعجب والغرور بعلمي وأدبي اذ ذاك ، حتى خلت بل وثقت الثقة كلها ، بأني مع سليمان وشوبنهاور قد عبرنا عن السؤال بطريقة كاملة لم يبق بعدها متسع لأحد ليصلح وضعه أو يضعه بصورة أفضل واكمل من صورته وكنت أعتقد أن جميع ملايين الناس قد قصرُوا عن أدراك عمق هذا السؤال ، وأني أنا الرجل الوحيد الذي أهتم في التفتيش عن معنى الحياة . ولم يخطر لي قط أن أفكر قاتلاً في نفسي : —

« ولكن ما هو المعنى الذي أعطته للحياة ، وتعطيه اليوم ، الملايين من الناس الذين عاشوا ويعيشون في العالم ؟ »

بمثل هذه الحالة الفكرية المضطربة عشت زمناً طويلاً ، ومع اني لم أستطع أن أعبر عنها بوضوح ، كما أعبر عنها اليوم ، فقد كانت الزم لي من ظلي كما هي شاملة أكثر المفكرين من الأحرار والمتعلمين بيد أنني لا أدري اذا كان ميلي الفطري لطبقات العمال ، الذي كان يضطرنني أن أفهمهم وأرى أن غباوتهم ليست كما يصورها المفكرون أو اذا كان اخلاصي في عقيدتي اني لا أستطيع أن أعرف شيئاً سوى الذهاب الى المشقة للتخلص من الحياة ، قد حملني الى الشعور بانني اذا كنت أرغب أن أعيش وأفهم معنى الحياة يجب ألا أنشد

ذلك بين الذين خسروا معنى حياتهم وجعلوا قيمتها ولذلك رغبوا في الانتحار ، بل يجب أن أسعى الى ذلك بين الملايين من الاحياء والاموات الذين بنوا لنا صروح الحياة التي نتمتع بها اليوم ، وحملوا أثقال حياتهم وحياتنا فرحين .

وهكذا جعلت أراقب الحياة العامة بين جماهير الاحياء والاموات ، حياة البسطاء وغير المتعلمين والفقراء ، فوجدت فيها شيئاً يختلف الاختلاف كله عن حياة الاقلية الممتازة: وجدت أن كل هذه الملايين من العامة الاحياء ، العائشين اليوم والذين عاشوا قبلهم لم يخطر لهم أن ينضموا الى أبناء طبقتي ، ولم أستطع أن أحسبهم من الذين لا يفهمون المسألة التي قادتني الى الشقاء ، لأنهم كانوا يعرفون هذه المسألة ويجاوبون عليها بملء الدقة والوضوح. ولم أقدر أن أحسبهم شوانيين ، لأن حياتهم كانت اليفة التضحية والالم رفيعة أكثر مما هي رفقة اللذة والفرح . ولا يجوز حسابهم بين الذين يعيشون على العكس من عقيدتهم ويصبرون على الحياة وهم عارفون أن الحياة لا معنى لها ، لم أقدر أن أضع أولئك البسطاء في مصف هؤلاء لأن كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمال حياتهم حتى موتهم نفسه واضح لديهم . أما الانتحار فانه معدوم بينهم وهم يحسبونه شر الجرائم . ولذلك ثبت لدي أن في هذه الانسانية الساذجة معرفة صحيحة لمعنى الحياة عميت أنا عن الاهتداء اليها ، لأنني كنت أنظر اليها نظرة الاحتقار . ومن هذا كله رأيت ان

المعرفة المبنية على أساس العقل تنكر معنى الحياة وترفضها . ولكن معنى الحياة الذي يفهمه الملايين من البسطاء مبني على معرفة سفسطائية محترقة .

فالمعرفة المبنية على العقل ، معرفة المستقبل والحكماء ، تنكر معنى الحياة ، ولكن أكثرية أبناء الانسان يتمسكون بمعرفة لا أثر للعقل فيها وهذه المعرفة تثبت لهم ان للحياة معنى سامياً .

وهذه المعرفة التي لا سلطان للعقل عليها هي الايمان الذي لم أقدر أن أقبله . ولذلك لم أستطع أن أسلم بوجود أقانيم ثلاثة في إله واحد ، او بخلق الملائكة والابالسة في وقت واحد وخلق العالم في ستة أيام . كل هذا لم أستطع أن أقبله لأنني كنت مستسلماً لسلطان عقلي فقط .

كان مركزي صعباً مزعجاً . لان المعرفة التي يقدمها العقل تنكر الحياة ، والمعرفة التي يمنحها الايمان تنكر العقل ، وكلا الامرين صعب علي وخصوصاً الثاني منهما . فالمعرفة المبنية على العقل قد برهنت أن الحياة شر ، وأن الناس يعرفون هذا وفي منالهم أن يقتلوا أنفسهم ويستريحوا من شر الحياة متى شاؤوا ، ولكنهم ما برحوا يعيشون في العالم وينفرون من الانتحار ، وأنا فرد منهم قد عشت طويلاً عالماً أن الحياة شر وحاقة لا معنى لها . ولو عشت بالايمان لقضي علي أن أهمل عقلي وأعرض عن تطلباته قبل أن

أستطيع أدراك معنى الحياة ولكن عقلي هو القوة الوحيدة في التي
تطلب أدراك معنى الحياة فكيف يمكن أن أفهم الحياة بدونه ؟

الفصل التاسع

عند هذا الحد وقفت أمام مناقضة غريبة لم أجد سوى طريقتين
للهرب منها . فاما أن يكون ما سميته معقولا لا أثر للعقل فيه كما
أعتقد وفكرت ، أو أن ما دعوته غير معقول لم يكن بعيداً عن
العقل بمقدار ما خطر لي . ولذلك بدأت أخص طريقة التفكير التي
قادتني الى نتائج المعرفة المبنية على العقل

وقد وجدت بهذا الفحص أن الطريقة التي لجأت إليها صحيحة
لا غبار عليها . لان النتيجة القاضية بان الحياة لا شيء لم يكن
منها بد . ولكنني وجدت فيها غلطة واحدة . وهذه الغلطة هي
أني لم أحصر كل أفكارني في المسئلة التي نحن في صدد البحث عنها
فقد كانت المسئلة هكذا : « لماذا أعيش ؟ أو بعبارة أخرى ، ما هو
الشيء الحقيقي الغير الفاني الذي سيبقى من حياتي الخيالية الفانية ؟
ما هو معنى وجودي المحدود في هذا الوجود الغير المحدود ؟ » وقد
جربت الجواب على هذا السؤال بدرس الحياة نفسها .

فظهر لي أن القرار في أي عدد من المسائل المتعلقة بالحياة
لا يمكن أن يقنعني ، لان سؤالي مهما بدأ بسيطاً لاول وهلة كان
يشمل وجوب ايضاح المحدود بغير المحدود والعكس بالعكس

سألت نفسي ، ما هو معنى حياتي ، بقطع النظر عن الزمان والعلّة والمكان . ولكنني كنت أجاب نفسي على سؤالني واضعاً أياه هكذا : « ما هو معنى حياتي بالنسبة الى الزمان والعلّة والمكان » ولذلك كانت النتيجة أنني بعد أجهاد الفكر بالدرس والبحث وقتاً طويلاً لم أهتم الى جواب قط .

ففي جميع مباحثي الفكرية مع نفسي كنت أقابل ، مضطراً ، المحدود بالمحدود ، وغير المحدود بغير المحدود ، ولذلك كانت النتيجة التي لا بد منها كما يأتي : « القوة هي القوة ، والمادة هي المادة ، والارادة هي الارادة ، وغير المحدود هو غير المحدود ، ولا شيء هو لا شيء ، » لا أكثر ولا أقل . فقد حدث لي كما يحدث في الرياضيات ، عندما نريد أن نحل معادلة يجب أن نحصل على أعداد متشابهة . فمع أن طريقة الحل صحيحة فإن الجواب يأتي هكذا . ب « تساوي ب . ج تساوي ج و ل تساوي ل . هذا هو نفس ما حدث لي في تفكّشي عن معنى حياتي . فقد تشابهت عندي جميع الاجوبة التي قدمها العلماء على اختلاف طبقاتهم .

والحقيقة الواضحة . أن المعرفة المبنية على العقل فقط ، المعرفة التي اعتمدها دسكرتس وعمل بها ، تبدأ بالشك العام في كل شيء ؛ والأعراض عن كل معرفة أساسها الايمان ، والتسك بكل ما يطلبه العقل ويؤيده الاختبار ، وهي لا تستطيع أن تجاوب على السؤال عن

معنى الحياة الا بنفس الجواب الذي حصلت عليه بنفسى ، وهو جواب مبهم غامض

خطر لي أولا أن العلم قد أجاب على هذا السؤال جواباً باتاً ، وهو جواب شوبنهاور أن الحياة لا معنى لها وهي شر بذاتها . ولكنني وجدت بعد البحث الدقيق أن هذا الجواب ليس بالجواب البات أبداً ، ولكن شعوري ونظري اليه جعلاه يظهر لي هكذا . اما الجواب الصريح ، الذي أجاب به بوذا وسليمان وشوبنهاور معاً واهمين أنهم اصابوا كبدا الحقيقة ، فهو ايضاً جواب ملائس غير محدود ، لانه لا يظهر لنا الا ان ج تساوي ج والحياة تساوي لا شيء . وهكذا نرى أن المعرفة الفلسفية لا تنكر شيئاً ، ولكنها تجاوب أن مثل هذا السؤال لا يمكن حله بمقاييسها ، ولذلك تظل القضية غير محدودة .

وعندما بلغت هذه النتيجة ادركت أنه من العبث السعي وراء جواب على سؤالي في المعرفة المبينة على العقل ، ووثقت بأن الجواب الذي تقدمه مثل هذه المعرفة ليس الا دليلاً واضحاً على أن الجواب مستحيل ما لم يوضع السؤال بطريقة أخرى تجعله شاملاً للعلاقة بين المحدود وغير المحدود . وأدركت أيضاً أن الاجوبة التي يقدمها الإيمان مهما خالفت أحكام العقل وتمردت على شرائعه ، فهي تمتاز بأنها تقدم لكل سؤال العلاقة بين المحدود وغير المحدود ، وبدون هذه العلاقة لا يمكننا الحصول على جواب ما .

فكيف وضعت السؤال : « كيف يجب أن أعيش ؟ » فالجواب عليه واحد : - « بشريعة الله . »

س : « وهل بعد حياتي شيء حقيقي ثابت ؟ وما هو ؟ »

ج : « عذاب ابدى أو بركة أبدية »

س : « وهل في حياتي معنى لا يستطيع الموت أن يذهب به ؟ »

ج : « نعم ، وهو الوحدة مع إله غير محدود في الفردوس . »

على هذا المنوال وجدت نفسى محجولا الى التسليم بان وراء المعرفة العقلية ، التي كنت أعتقد أنها المعرفة الحقيقية الواحدة ، وجد ويوجد في كل انسان نوع آخر من المعرفة لا سلطان للعقل عليها . وهو الايمان الذى يساعد الناس على الغبطة في الحياة .

ومع اني إظلمت أعتقد ان الايمان بعيد عن أحكام العقل ، فلم أجد بدا من التسليم بان الايمان وحده منح الانسان جوابات معزية على مسائل الحياة ، ومهد أمامه العقبات الحائلة دون سعادة حياته .

فالمعرفة المبنية على العقل اظهرت لي أن الحياة لا معنى لها ، فاحتقرت حياتي ، وودت أن أقتل نفسى يدي . بيد اني كلما نظرت الى جماهير الناس حوالى كنت أرى أنهم يعيشون فرحين بالحياة عارفين معانيها السامية . لان الايمان قد منحهم كما منحني قوة على ادراك معنى الحياة وحمل اثقالها بفرح وصبر .

وقد وجدت هذه الحقيقة نفسها في بلدان عديدة غير بلادي .

وبين أقوام كثيرين غير قومي من معاصري الاحياء والذين ماتوا قبلي . فقد كانت الحياة منذ وجدت على الارض رفيقة للايمان ، الذي لا لذة فيها بدونه .

ومهما تعددت أنواع الاجوبة التي يقدمها الايمان للانسان فان كل واحد منها يجعل لحياة الانسان المحدودة معنى غير محدود ، معنى لا يزول ولا يفنى مهما اجتمع لمحاربته من جيوش الآلام والوحدة والموت . فبالايمان اذن نستطيع أن نجد الحياة ، وبه نفهم معانيها السامية . فما هو هذا الايمان ؟ ليس الايمان كما فهمته باعلان غير المنظورات فقط ، ولا هو بالوحي الذي ينزل على قلوبنا فقط ، لان مثل هذا التحديد يظهر لنا شكلا واحداً من أشكال الايمان المتعددة ، كلا ولا هو علاقة الانسان بالله فقط ، (لان الايمان يجب أن يتحدد أولاً ثم الله) ولا هو الاذعان لما أخبر به الانسان فقط ، كما يعتقد الكثير من الناس ، وإنما الايمان الحقيقي الكامل هو معرفة معاني الحياة الانسانية معرفة حقاً تحمل الانسان على بحبة الحياة والمحافظة عليها . الايمان هو وحده قوة الحياة .

فالرجل الحي يؤمن بشيء ، وبغير الايمان لا يستطيع بشر أن يعيش في العالم . لان الذي لا يؤمن بان في الوجود غاية يعيش لأجلها هو ميت بالحقيقة . فاذا لم ير ولم يفهم بطلان المحدود فهو يؤمن بغير المحدود . واذا رأى بطلان المحدود وزواله فهو مضطر الى الايمان بغير المحدود في كل حال . فالحياة بغير الايمان مستحيلة .

حينئذ رجعت الي أفكاري القديمة أتأمل فيها مرتعداً خائفاً، فقد اتضح لي الان أن على الراغب في الحياة أما أن يغمض عينيه عن غير المحدود ، أو أن يقبل تفسيراً لمعنى الحياة يساوي بين المحدود وغير المحدود . وقد قبلت مثل هذا التفسير ، ولكنني لم اكن في حاجة اليه بعد ان أمنت بالمحدود ، ولذلك شرعت . أطبق تجارب العقل على تفسيري : وفي نور العقل رأيت أن جميع هذه التفسيرات للحياة عقيمة وباطلة . ولكن الوقت الذي انقطعت فيه عن الايمان بالمحدود مضى ، وعشنا حاولت في غضون ذلك أن أجد ايضاحاً لمعنى الحياة ابنيه على أساس العقل والمعرفة . واما مصاحبتي لعظماء المفكرين ، ودرسي لآراء نخبة الحكماء فلم يدنيني الا من النتيجة القائلة ان ج تساوي ج . ومع أن هذه النتيجة لم تجد فائدة لحياتي فقد قبلتها معجبا بمقدرتي على الحصول على مثلها لايضاح القضية التي شغلت فكري وحرمتني لذتي في حياتي

ماذا فعلت عندما نشدت جواباً على قضيتي بدرس العلوم الطبيعية؟ رغبت في معرفة السبب الذي اعيش لاجله ، ولذلك درست كل شيء ما خلا نفسي . ولا شك انني تعلمت امورا كثيرة بهذا الدرس ، ولكنني لم اتعلم شيئاً مما كنت في حاجة اليه .

وماذا فعلت عندما نشدت الجواب في درس الفلسفة ؟ درست افكار الذين كانوا في نفس الحالة التي كنت فيها ، يجهلون الجواب على السؤال « لماذا اعيش ؟ » وواضح انه لم يكن لي اتعلم بهذه

الطريقة الا ما عرفته من قبل ، وهو انه يستحيل علي ان اعرف شيئا من انا ؟ — جزء من غير المحدود . بهذه الكلمات سر القضية يكاملها .

وهل يمكن ان الانسانية لم يخطر لها مثل هذا السؤال من قبل ؟
ام هل يعقل انه لم يتعرض احد قبلي لمثل هذا السؤال البسيط الذي يخطر على بال كل ولد ذكي ؟

كلا : فالانسان منذ وجد على الارض وهو يسأل مثل هذا السؤال ، وقد عرف الناس منذ اقدم الازمنة ان الجواب على هذا السؤال سواء بني على مقابلة المحدود بالمحدود او غير المحدود بغير المحدود ، قلما يأتي بنتيجة . وما يرح الانسان منذ ابعد ازمنة التاريخ يدرس علاقة المحدود بغير المحدود ويوضحها ويفسر ها .

وجميع الاراء المتعلقة بمساواة المحدود وغير المحدود ، التي بواسطتها بلغت الينا عقائدنا بالحياة ، والخالق ، والحرية ، والصالح ، تخضعها للتحليل المنطقي . وهذه الاراء لا تقبل تجارب العقل المادية في تفسير غاية الحياة .

فاذا لم يكن المنظر راعبا ، فانه ولا شك يدعو الى الضحك والسخرية ان نرى ذواتنا محمولين بمعجينا وغرورنا بمعرفتتنا كالاولاد الصغار ، ندور ساعاتنا بايدينا ، ثم لا نلبث ان ننزع منها محرقاتها لاعبين بها متعجبين كيف انها لا تضبط الوقت

ان التقرير في التناقض الكائن بين المحدود وغير المحدود ،

والجواب على السؤال المتعلق بغاية الحياة وحقيقتها بطريقة تدنينا من الحياة وتقرب الحياة منا ، كل هذا ضروري بالغ الاهمية في حياتنا . والجواب الوحيد على هذا هو بالحقيقة موجود في كل مكان ، وفي كل زمان بين جميع الامم والشعوب ، وقد وصل اليها من اقدم الازمنة التي لم يعرف الناس فيها شيئا عن اصل الانسان وهو صعب بهذا المقدار حتى انه كان يتعذر علينا ان نصل اليه بانفسنا ، واكفنا بعد ان حصلنا عليه عدنا ، باهمالنا وعدم اكترائنا فاعرضنا عنه بالشروع بمسائل لا فائدة منها تعرض لكل منا ولكن ليس بيننا من يعرف ان يجاوب عليها .

فالعقيدة القائلة بوجود اله غير محدود ونفس مقدسة خالدة ، وطريقة معروفة لعلاقة المخلوق بالخالق ، ووحدة الروح وحقيقتها ، ورأي الانسان في الخير والشر ، كل هذه ميراث خالد لم نحصل عليه الا بعد جهاد الانسانية في سبيله اجيالا عديدة . ومع انه بغير هذا الميراث لا يمكن ان توجد حياة ، وبدونه لا يستطيع انا ان أوجد فاني ، أنكره وأتمرد على عمل الانسانية بأسرها ، مغامرا في حل قضيتي بواسطة فكري وحده .

مثل هذه الافكار لم تخطر لي في تلك الايام كما اوضحتها الآن ، ولكن جذورها كانت في فكري . فادركت .

« ١ » ان المركز الذي اتخذناه انا وشو بنهور وسليمان ، بالرغم من كل حكمتنا ، كان جنونيا محضاً . لاننا مع معرفتنا ان الحياة شر .

لا نزال نتمسك بها . ويتضح جنون هذا الرأي مما يأتي : اذا كانت الحياة في عقيدتنا شرا وجنوناً ، فلماذا لا نقتل ذاتنا ونستريح من المرارة التي يحملها شر الحياة لافكارنا ؟

«٢» وفهمت أيضاً اننا بجميع مباحثنا كنا ندور في دائرة واحدة. ندرس ، ونبحث ، ونفقد ، وندقق ، وأخيراً تأتي النتيجة ج تساوي ج . فسر الماء بعد الجهد بالماء .

«٣» بدأت أدرك أن الاجوبة التي يقدمها الايمان تحتوي على انقي يناهض الحكمة البشرية ، وانه لا يجوز لي ان أرفضها لمجرد تمرد العقل عليها ، فهي وحدها الكفيلة بحل قضية الحياة .

الفصل العاشر

قد فهمت كل هذا ، ولكنه لم يساعدني على التخلص من شغائني فقد أصبحت مستعداً ان اقبل اي ايمان كان على شرط ان لا يطلب مني نكرانا ظاهراً لعقلي ، لان مثل هذا العمل يعرضني للكذب . فدرست البوذية والاسلامية بكتبهما الاصلية ، ودرست المسيحية بعناية خاصة ، بكل ما كتب فيها وبحياة اساتذتها الذين كانوا حولي .

فوقف فكري وانتباهي اولا على درس المؤمنين من أبناء بلادتي المقرين مني ، علماء الارثوذكسية وعظماء المفكرين من رجال الدين والرهبان الشيوخ المؤمنين بان الخلاص يتوقف على الايمان

بالفاذي . فكنت أسعى الى هؤلاء المؤمنين وأسألهم عن ايمانهم وعن عقائدهم في الحياة والغاية منها .

ومع انني كنت ابذل كل جهدي لتجنب المناظرات والمجادلات معهم فاني لم استطع أن اعتنق ايمانهم . فقد رأيت أن الذين كانوا يطلقون عليه اسم الايمان ، لم يوضح لي معنى الحياة ، بل عمل بالاحرى على زيادة في ظلمتها ، ورأيت ايضاً أنهم لم يبنوا ايمانهم على اساس المجاوبة على مسائل الحياة التي جذبتني بحبة الاطلاع عليها الى الايمان بل كانت تحملهم الى ايمانهم غايات اخرى لا شأن لي فيها

وانني لا ازال اذكر الرعب الذي استولى علي والآلام المريرة التي قاسيتها بعد ان فشلت في الاهتداء الى ضلالي بين زعماء الايمان الذين طالما عللت النفس بالخلاص عن يدهم ، ولكنني لم استغف شديداً بل رجعت الى هاوية يأسى الاول ، أوفر شقاء وأكثر تعسا .

فكنت كلما بالغوا في بسط دقائق عقائدهم أمامي اشعر بمللهم الوضوح انهم على ضلال ، وان عقائدهم كلها لا تستطيع ان توضح لي معنى الحياة .

ولم تكن ثورتي على ما اضافوه من الزوائد الثقافية الى العقيدة المسيحية البسيطة ، العزيزة على قلبي دائماً ، بالشئ المذكور تجاه دهشتي مما رأيته وعرفته ان حياتهم الشخصية لا تختلف عن حياتي الا بانهم يعيشون على خلاف ما يعلمون ويؤمنون . ولذلك ثبت لدي انهم كانوا يخادعون ذواتهم ، وانه ، لا لامثالهم ولا لمثلي ،

من غاية في الحياة سوى التمتع بطبيعتها ، والاستسلام لرغباتها . رأيت هذا ، وأعتقد به ثانية ، لانه لو كان الايمان الذي يقول به هؤلاء قادراً على ازالة الخوف من الشيخوخة ، والمرض ، والموت ، لما كانوا ، وهم المؤمنون الحقيقيون في زعم اتباعهم يرتعدون خوفاً من الموت والمرض والشيخوخة ولكن المؤمنين الذين عرفتهم في محيطي كانوا مثلي ، يتنعمون بمعيشتهم ، ويحافظون على ثروتهم ، ويبالغون في العمل على زيادتها ، وتلهع قلوبهم من مجرد الافتكاري في الشيخوخة ، او المرض ، او الموت . وفوق كل هذا كانوا مثلي ، ومثل جميع البعيدين عن الايمان ، يستسلمون لشهوات الجسد ، ويعيشون معيشة ، ان لم تكن بآدابها اسقط من معيشة الكفار ، فهي مثلها على الاقل .

لم تستطع المناظرات ان تقنعي باخلاص هؤلاء المؤمنين في ايمانهم . فالاعمال وحدها التي بها يبرهن صاحبها على ايمانه بالحياة ايماناً يجعله يقضي قضاء مبرماً على الخوف من الفقر ، والمرض ، والموت ، هي التي كانت تستطيع ان تقنعي ، ولكني لم اجد مثل هذه الاعمال بين جميع انواع المؤمنين الذين عرفتهم اذ ذاك . والقليل منها الذي وجدته كان بين الكفرة أكثر منه بين المؤمنين

حينئذ أدركت ان ايمان هؤلاء ليس بالايمان الذي نشدته ، بل هو شكل من الاشكال التي يلجأ اليها ذوو الشهوات في الحياة لتبرير ذواتهم تجاه الحياة . وفهمت جيداً ان هذا الايمان ، اذا لم يستطع

ان يعزي صاحبه التعزية الكاملة فهو على الاقل قادر ان يهديء
من ثورة فكر كفكر سليمان وهو على فراش الموت . ولكن هذا
لا يقدر ان يؤدي الخدمة اللازمة لاكثرية ابناء الانسان ، الذين
لم يولدوا للتمتع باتعاب العمال واعراقهم ، بل انما ولدوا ليوجدوا
حياة لانفسهم بمجدهم وتعبيهم . فالانسانية ، لكي تعيش ، وتواصل
حياتها شاعره بمعنى هذه الحياة ، تحتاج الى نوع اخر من الايمان
أنقى وأصدق من الايمان الذي عرفته . حينئذ لم يقنعني بوجود
الايمان مجرد ان سليمان وشوبنهاور ، وكل من وافقهما في آرائهما مثلي ،
لم يقتلوا ذواتهم ، بل انما اقنعتني الحقيقة الواضحة ان مئات الملايين
من ابناء الانسان قد درسوا سليمان وشوبنهاور ومع ذلك عاشوا
حياة سعيدة لاتعيها شائبة ولايزعجها شك او تردد

وهكذا شعرت بقوة تدنيي من المؤمنين من طبقات الفقراء ،
والبسطاء ، والجهلاء ، والنساك ، والرهبان ، والفلاحين السادجين .
والعجيب ، ان ابناء الشعب هؤلاء كانوا يعتقدون بنفس العقيدة
المسيحية التي كان ابناء طبقتي الشريفة يدعون الانتماء اليها . ومع
ان عقيدة هؤلاء الفقراء كان يمازجها الكثير من الخرافة والوهم ،
كما هو الحال مع عقيدة الاغنياء من رجال الدين والدنيا ، فان الفرق
كان ظاهراً بين الفريقين ظهور الشمس . لان مزج الخرافة بالعقيدة
المسيحية لم يكن له اقل تأثير في حياة الاغنياء ، بل كانت الغاية منه
جعلهم خدعة ونخا للبسطاء ، اما مزج الخرافة بالعقيدة المسيحية في

حياة العمال والفقراء فقد كان جزءاً ملازماً لهذه العقيدة ولم يكن من الممكن غرسها في أذهانهم وجعلها جزءاً من حياتهم بدونها . ولذلك كانت حياة المؤمنين ، من أبناء طبقتنا الاغنياء والاشراف مناقضة كل المناقضة لايمانهم ، في حين ان حياة المؤمنين ، من الفقراء والعمال ، كانت تحقيقاً ثابتاً لايمانهم الصحيح الذي به وحده استطاعوا ان يدركوا معنى الحياة .

لاجل هذا شرعت للحال في درس حياة العامة وعقائدهم ، وكنت كلما تعمقت في درسي ازداد اقتناعاً بان الايمان الحقيقي كائن في قلوبهم ، وانهم يعتقدون في أعماق نفوسهم ، ان هذا الايمان جزء مكمّل لحياتهم ، وبدونه لا يجدون من معنى لوجودهم على الارض . فكان ما رأيته في عامة الشعب مناقضاً على خط مستقيم لما رأيته بين الخاصة من أبناء الاشراف والاغنياء ، الذين كانت حياتهم بدون الايمان سهلة جداً عليهم ، ولم يكن بين كل الف منهم مؤمن واحد : في حين ان الفقراء والعامة لم يكن بين الالف منهم رجل واحد غير مؤمن . وعلى العكس مما رأيت في طبقتنا ، حيث تقضي الحياة بالكسل والملذات ، والتمرد على الحياة ، كنت أرى الاكثرية الساحقة من العمال تعيش مجتهدة ، عاملة بغير انقطاع ، فرحة بالحياة ، راضية بقسمتها فيها . وعلى العكس مما رأيت في طبقتنا ، رجالاً ونساء متمردين ، ثائرين مرتجفين امام اوجاعهم وامراضهم الكثيرة ، رأيت بين العامة هدوء اتجاه مصائب الحياة

واوجاعها وهمومها ، اني ينظر اليها الفقراء نظرتهم الى حوادث
لا بد منها ، وهي في الغالب تعمل للخير . وعلى العكس من العقيدة
الغالبة بيننا ، القائلة ان الانسان كلما قل عمله قلت معرفته لمعنى الحياة
وتزايدت عماوته عن رؤية الحقيقة التي توضح له ان المرض ، والموت ،
والشيخوخة ، مساخر شريرة ، على العكس من كل هذا ، كنت
ارى اوائك العمال الفقراء يعيشون ، ويمرضون ، ويموتون ، من
غير ان تفارقهم الثقة بحكمة الحياة ، والابتسامة لا تنتزع منهم .
ومع ان ابناء طبقتي اجمعت كلتهم على ان الموت الذي يرافقه الصبر
والهدوء والفرح ، والرجاء ، ويبعد عنه التذمر ، والياس ، نادر
في العالم ، فقد رأيت ان الموت الذي يرافقه التذمر والياس لا اثر
لوجوده بين الطبقات الحقيرة .

ومع ان هؤلاء الفقراء حرّموا جميع الملذات التي تجعل الحياة
ذات قيمة في نظر سليمان ونظرنا ، فهم يعيشون في وسط سعادة
لم يحلم بها سليمان في مجده ، ولم يعرف مثلها اعظم عظماء الارض .
تأملت في كل من حولي من العامة ، ودرست حياة جميع الذين هاصروني
وماتوا قبلي من ابناء الشعب فرأيت انه ليس فقط واحد او اثنان او
ثلاثة منهم ، بل مئات والوف وملايين ، قد فهموا معنى الحياة
بطريقة مكنتهم من المعيشة بغبطة والموت بطأئنة . جميع هؤلاء
الالوف والملايين من ابناء الاثنان ، المتفرقين بعضهم عن بعض
ببلاخلاق ، والعادات ، والتربية ، والتعليم ، والمراكز الاجتماعية ،

كانوا على عكس ما كنت، واقفين على معاني الحياة والموت، ولذلك اشتغلوا بهدوء، واجتملوا الفقر والمرض بصبر، وعاشوا، وماتوا وكان كل ما رأوه في الحياة من عسل وحنظل حلوا صالحا في عقيدتهم لاجل كل هذا احببتهم، ودنوت منهم، ورجبت في الحياة معهم. وفي كل ساعة كان لي درس سعيد من حياتهم، حياة الاحياء منهم الذين عاشرتهم، والاموات الذين قرأت تراجمهم وأخبرت عن تصرفاتهم: ولذلك كنت اشعر بنمو محبتي لهم، وشديد رغبتي في اقتناء خطواتهم والتخلق باخلاقيهم. على هذه الصورة عشت عامين كاملين سعيدين. وفي نهايتها حصل تغيير كبير في حياتي، طالما تحفز للظهور، وكنت اشعر به ولا ادري كيف ومتى اظهره. وخلاصته ان حياة طبقتنا الغنية والمتعلمة اصبحت مكرهة في عيني، ولم يبق لها اقل معنى في عقيدتي. فجميع اعمالنا، وافكارنا، وعلومنا، وفنوننا، ظهرت لي باشكل جديدة وصور جديدة. فادركت انها كلها لعبة صبي صغير لا معنى لها. وثبت لدي ان حياة العمال، وجميع ابناء الانسانية المشتغلين بالانتاج، والعاملين على البناء والتعمير، هي وحدها الحياة الحقيقية التي يجدر بي وبكل عاقل ان يسعى اليها. اجل، فقد ادركت جيدا ان هذه هي الحياة الحقيقية، وان المعنى الذي يجده ابناءؤها فيها هو المعنى الحقيقي للحياة ولذلك قبلته بفرح عظيم

الفصل الحادي عشر

عندما تذكرت ثورتي على هذه العقائد بعينها ، وعدت بالفكر الى النظرة الحقيمة التي نظرتها اليها عندما رأيت ان الذين يدعون التمسك بها يعملون ما هو مخالف لها ، وفكرت كيف ان هذه العقائد نفسها قد جذبت قلبي اليها ، وظهرت لي كاملة صحيحة عندما درست حياة العائشين على وفقها ، حينئذ ادركت في اعماق قلبي لماذا رفضتها وحسبتها بدون معنى في ماضى من عمري ، ولماذا اعتنقتها فيما بعد وعرفت انها ممتلئة بالمعاني السامية . قد فهمت اتى اخطأت وادركت ما هو خطأي . فلم يكن خطأي منحصر في فساد تفكيري فقط ، بل انما كان بالاحرى في فساد حياتي . ولذلك ادركت ان الحقيقة ، لم تحجب وجهها عني لمجرد غلطي في التأمل والتفكير فقط ، ولكنها حجبت عني من اجل معيشتي للشادة ، واستسلامي لشهواني الجامحة ورغباتي الثائرة . وادركت ايضا ان سؤالي : ما «هي حياتي ؟» والجواب «هي شر» ، كانا منطبقين كل الانطباق على الواقع . ولكن الخطأ نتج عن رغبتني في تطبيق هذا الجواب ، الذي يتناول حياتي وحدها على الحياة عامة . فقد سألت « ما هي حياتي الخصوصية ؟ » فكان الجواب بحق : «هي شر وضلال . » وهو بالحقيقة جواب صحيح . لان حياتي في ذلك الحين الحياة الممتلئة بالآثم والمعصية ، كانت بالحقيقة شراً وضلالاً .

فالجواب القائل : « ان الحياة شر لا معنى له » كان منطبقا على حياتي الشخصية اذ ذاك ، وليس على الحياة بوجه عام .
حينئذ ادركت الحقيقة التي وجدتها فيما بعد في الانجيل :
« ان الناس احبوا الظلمة دون النور ، لان اعمالهم كانت شريرة .
لان كل من يصنع الشر يبغض النور ، ولا يأتي الى النور ، لئلا
توبخ اعماله . »

فرأيت بوضوح ان على الراغب في ادراك معنى الحياة ان يعيش هو نفسه اولا حياة بعيدة عن الشر ممتلئة بالمعاني الصالحة ،
وحينئذ تستنير بصيرته فيرى المعنى الحقيقي لحياته . وفهمت اخيراً
لماذا كنت أدور حول هذه الحقيقة البسيطة زمنا طويلا من غير
ان اراها ، وادركت ان الذي يتكلم عن الحياة ، يجب ان ينظر
اليها نظرة عامة ، ولا يقصر نظره على حشرات دنيئة عليها .

هذه حقيقة كانت ، وما برحت ، حقيقة كما ان ٢ في ٢ يساوي ٤
ولكنني لم اقبلها لانه كان يجدر بي فوق اعترافي بان ٢ في ٢
يساوي اربعة ان اعترف اني رجل شرير . فقد كنت ارى ان
اعتقادي بصلاحي اصدق في عقيدتي من التسليم بان ٢ في ٢ يساوي
اربعة ولاجل هذا احببت الصالحين ، وابتغضت نفسي ، وقبلت الحق
وها قد أصبح كل شيء واضحا في عيني .

فاذا سألت اليوم الذي ينفذ أحكام القتل ، ويقضى حياته بتعذيب
الناس وقطع رؤوسهم ، أو اذا سألت سكير فاسق ، أو مجنون معتوه

يقضى عمره في غرفة مظلمة ، وهو على كرهه لسجنه التمام يعتقد أنه يموت اذا خرج منه ، اذا سأل اليوم كل واحد من هؤلاء نفسه السؤال : « ما هي الحياة ؟ » فانه لا يجد سوى جواب واحد خلاصته ان الحياة شر وحماقة ، ومثل هذا الجواب يكون حقيقياً ، ولكن في ما يخص حياة الذي يسأله دون غيره من الناس . فهل كنت أنا والحالة هذه مجنوناً بهذا المقدار ؟ هل كنا باجمعنا نحن الاغنياء والاذكياء والسكالي في هذه الدرجة من الجنون المطبق .. ؟

قد ادركت أخيراً اننا كنا اكثر من هذا جميعنا ، أو اننى على الاقل ، انا وحدي ، كنت مجنوناً . فالطير في عقيدتي قد خلق بطريقة ملائمة للطيران والتقاط طعامه وبناء عشه ، وكلما رأيته يقوم بعمله افرح لفرحه . والماعز والارنب والذئب كلها خلقت بطريقة عجيبة تمكنها من نيل طعامها ، والمحافظة على جنسها ، وتربية صغارها ، وهي اذ تقوم باعمالها سعيدة في عقيدتي ، وحياتها منطبقة كل الانطباق على العقل

فماذا يجب على الانسان ان يعمله اذن ؟ فهو كالحيوان يجب أن يحصل على معاشه ، ولكن بطريقة تختلف عن الطريقة التي يربح بها الحيوان معاشه . فالحيوان يسعى منفردا ويعيش ، ولكن الانسان الذي يحصر كل جهوده بنفسه لا نجاح له . ولذلك وجب عليه أن يشتغل للانسانية قاطبة ، والانسانية لا تحرمه من ثمرة عمله . فاذا

قام بمثل هذا العمل فانا واثق بسعادته ، وبأن حياته تكون منطبقة على العقل .

فماذا فعلت انا في الثلاثين سنة الماضية من حياتي الناضجة ؟
اتى لم اقتصر على عدم مساعدة حياة غيري ، ولكنني لم اصنع شيئاً
حسناً لنفسى فقد عشت معيشة حشرة قذرة ، وعند ما سألت نفسى
لماذا عشت في الوجود ، حصلت في الحال على الجواب المصيب :
« ليس من سبب واحد لمعيشتك » فاذا كان معنى حياة الانسان
منحصرا في قيامه باعمال حياته لنفسه ، فكيف كان من الممكن انى
أنا الذي قضيت ثلاثين عاما من عمري ، ابذل جهودى للقضاء على
حياتى ، وحياة الآخرين ، يجب ان اسمع جوابا غير هذا الجواب
ان حياتى شر وضلال عظيم ؟

نعم كانت حياتى شرأ وضلالا

ان في الوجود ارادة كلية تدير كل ما فيه من الكائنات . وهذه
الارادة الكلية لا عمل لها سوى العناية بحياتنا وحياة الوجود الذي
نعيش فيه . ولكي نرجو ادراك غاية هذه الارادة يجب علينا قبل
كل شيء ، ان نعمل الواجبات المفروضة علينا . فاذا لم أقم أنا
بقسطي من الواجب في الوجود ، فانتى لن اعرف شيئا عن هذه
الارادة ، ولا عن الوجود الذي انا جزء منه .

اذا حمل متسول فقير ، عاري الجسد ، من مفارق الطرق الى
مسكن فسيح الارحاء ، وهناك أمر به ان يلبس ، ويطعم ، ويعمل .

في تحريك يد مضخة ماء ، فالامر واضح أن المتسول ، قبل أن يفتش عن السبب الذي حمل صاحب المنزل أن ينقله الى بيته ويأمره بتحريك يد مضخة الماء ، وقبل أن يفكر في ما اذا كانت النظم والترتيبات التي في المنزل معقولة أم لا ، يجب عليه ان يحرك يد المضخة . وهو اذ يحرك هذه اليد يجد ان حركته ، بواسطة المضخة الداخلية ، تخرج الماء من قلب الارض وتروي سطحها فيأتي بالثمار الشبية . وبعد ان يظهر براءة في حركة يد المضخة ، ينقلونه الى عمل آخر مثل جمع الأثمار ، والعناية بالأشجار ، وهكذا يجد بتنقله في أعمال الدار التي هو فيها ، النظام الموضوع لتلك الدار ، وينال قسطه منها بملء السهولة ، بواسطة العمل ، الذي لو لم يعنهم به ، بل اقتصر على الكلام والسؤال ، لما كان له شيء .

وهكذا الحال مع الذين يصنعون مشيئة سيدهم . فهم يقومون بأعمالهم فرحين شاكرين لا يعرف التذمر سبيله الى قلوبهم . أما نحن الذين يدعون العلم ، والحكمة ، والفهم ، فإننا تأكل خيرات رب البيت ولا نريد أن نقوم بالعمل الذي يفرضه علينا . ولا نكتفى بهذا فقط ، بل نجلس على كراسي العامالين الصادقين ونشرع في البحث والجدال : لماذا يجب ان يحرك يد المضخة ؟ مدعين ان مثل هذا العمل يليق بنا . وبعد أن نفكر في كل هذا ، ونفرغ من مباحثنا ، ماذا تكون النتيجة ؟ نقول ان رب البيت نفسه يليد أيضاً ، أو انه غير موجود ، واننا نحن وحدنا حكماء ولكننا نشعر

اتنا لا نصلح لشيء ، وان حياتنا كلها لا معنى لها ، ولذلك يجب
ان نضع لها حدا بالانتحار

الفصل الثاني عشر

ان اقتناعي بخطأ المعرفة المبنية على العقل وحده ، قد ساعدني
على تحرير نفسي من التفكير العقيم . والحقيقة الجديدة التي اظهرت
لي ان معرفة الحق لا يمكن أن يحصل عليها الا الذي يتمتع بالحياة
الحق ، قد قادني أخيراً الى الشك في عدالة حياتي ، ولذلك رأيت
من الواجب علي أن أخرج من دائرتي الضيقة ، وأتأمل في ماحوالي
ملاحظاً حياة العمال الحقيقيين ، ومتعلماً ان هذه الحياة البسيطة هي
الحياة الحقيقية بعينها . فادركت اذ ذاك انني اذا شئت ان افهم
الحياة ، واقف على معناها ، يجب علي ان لا اعيش حياة حشرة
عالقة على جسم غيرها ، بل حياة مثمرة بالعمل الصالح لها وللعالم
اجمع ، مقتبلاً المعنى الذي يمنحه للحياة جماهير العاملين الامناء ،
الذين يؤفون صرح الانسانية الكاملة

وانني أستطيع ان الخص مركزي آنشد بما يأتي : —
في اثناء تلك السنة ، التي فكرت فيها بما سبقت فوصفته في
الفصول السابقة ، كنت اسأل نفسي في كل دقيقة ، اذا كان الافضل
لي أن اقتل ذاتي أم لا . وافكر بغير انقطاع في الحياة وما يشكل
علي من اسراوها . ولكن قلبي كان يتألم . وفي أعماقه شعور مذيب

لا أستطيع ان اصفه الا بانه عاطفة خفية كانت تدفع بي الى التفتيش عن الله .

وهذا التفتيش عن الله ليس من نتاج فكري ، بل انما كان شعوراً في قلبي . وانا أقول هذا بملء الثقة ، لان فكري لم يكن راضياً عن مثل هذا الشعور النامي في قلبي . وقد كان هذا الشعور اشبه بما يحتاج في قلب اليتيم ، أو الضائع في مجاهل لا يعرف عنها شيئاً ، وهو يرجو مساعدة ، ولكنه لا يعرف ممن سيحصل عليها .

ومع انني كنت واثقاً بان البرهان على وجود الله مستحيل علي لان كنت الفيلسوف أظهر لي هذا ، وانا قبلته ونمست به . فقد ظلمت أسعى وأفتش عن إله ، وأؤمل بالبلوغ الى ضالتي ، وكنت في كل أيام شكوكي ، عملاً بعادة قديمة أخاطب هذا الإله بصلاتي من غير ان أجده .

ففي بعض المرات كنت أراجع مباحث كنت وشوبنهاور في ان البرهان على وجود الله مستحيل ، وأقبلها باقتناع ، ثم لا ألبث ان أثور عليها في أوقات أخرى ، وأفندها وأظهر خطأها وضلالها . فكنت أقول في نفسي ، ان التعليل لا يمكن ان يقيد بقيود الفكر كالزمان والمكان . فاذا كنت انا موجود فلا بد من علة لوجودي وهذه علة جميع العلل . وعلة جميع العلل هذه هي ما نسميه الله وقد لزمني هذا الفكر أو الشعور حتي كنت أبذل كل ما في قوتي للبلوغ الى الشعور بوجود هذه العلة

وعندما شعرت بوجود مثل هذه القوة ، التي هي اسمى مني ،
أدركت للحال ان حياتي مستحيلة كما خيل الي من قبل . حينئذ
سألت نفسي قائلاً : —

« ما هي هذه العلة أو القوة ؟ كيف يجب ان أفكر فيها ؟ وما
هي العلاقة التي بيني وبين ما اسميه الله ؟ »
ولكنني لم أجد لهذه الاسئلة غير الجواب القديم المعروف :
« هو الخالق باري ، كل الكائنات . »

ولكن هذا الجواب لم يقنعني . فشعرت ان قوة الحياة الضرورية
ما برحت تعوزني ، فعاودتني مخاوفي وشكوكي ، وشرعت في الحال
أصلي الى الاله ، الذي كنت أفتش عنه ، ليساعدني وينقذني من
يأسي . بيد ان أفراطي في الصلاة لم يزدني الا ثقة بان صلواتي لم يسمعها
أحد ، وبأنه لا يوجد أحد يستطيع الانسان ان يلجأ اليه في عهد
محنته . لاجل ذلك صرخت واليأس يملأ قلبي ، لعدم مقدرتي على
الاهتداء الى الاله الذي فتشت عنه ، قائلاً :

« يارب أرحمني وخلصني . أيها الرب الهي علمني . »
ولكن لم يرحمني أحد ، ولذلك شعرت ان حياتي قد دنت نهايتها
بيد أنني لم البث أن رجعت مثني وثلاث ورباع الى موضعي
القديم ، ولكن من جهات متعددة ، مفكراً في ذاتي وقائلاً : انه
يستحيل ان أوجد على هذه الارض بدون غاية معينة لوجودي ،
أو معنى مخصوص لحياتي ، ولا يمكن البته ان أكون (كما كان ينظر

لحي بعض المرات) فرخاً صغيراً ، سقط من عشه صدفة على الأرض .
وما الذي يحملني الى الصراخ ، كما يفعل فرخ الطير بعد ان يقع
على ظهره على عشب الحقل ؟ اليس هذا دليلاً على ان هنالك أمّاً
ولدتني ، واعتنت بتربيتي واطعمتني ، وأحبتني ؟ ولكن اين هي ؟
اين تلك الام ؟ واذا كنت قد رميت من عشي ، فمن رماني ؟ انني
لا أستطيع ان أتعامى عن رؤية هذه الحقيقة : وهي ان كائناتنا أحبني
وكان السبب في وجودي . فمن هو هذا الكائن ؟ هو - ولا شك -
الله . وهو يعرف تفنيسي ، ويرى سعي ، ويأسي ، وجهادي . فقلت
لنفسي : « هو موجود بالحقيقة . » وكنت في كل لحظة ، اعترف
فيها بوجوده ، أشعر بان حياتي تجددت ، وایمانی بما في الوجود من
اللذة والبهجة قد نهض من رمله .

وقد فارقتني هذه القناعة بوجود الله ، الى درس علاقتنا معه ،
معرض أمامي الاله المثلث الاقانيم ، خالقنا ، الذي أرسل ابنه قادياً
لخطايانا . حينئذ رأيت هذا الاله ، المنفصل عني وعن العالم ، يذوب
كالجليد من أمام عيني ، فلم يبق لوجوده أثر في ذهني ، ولذلك نصب
ينبوع الحياة الذي رأيت هنيئاً وكنت أعلل النفس بأن أروي ظمأ
يأسي من مائه النмир . فسقطت ثانية في هوة اليأس ، وشعرت بانه
لم يبق لي سوى العزم على قتل نفسي . ولكن هنالك شعوراً آخر
أرداً من هذا لزمني : وهو انني يجب ألا أفكر بالاقدام على مثل
هذا العمل الفظيع ابداً .

لا اقول مثني ، و ثلاث بل عشرات ومئات المرات ، كانت
تنزعني هذه الافكار المتناقضة ، فتارة اؤمن وأشعر بحلاوة الحياة ،
وطوراً يفارقني ايماني ويحل مكانه الشكوك والشعور بشر الحياة
وبطلانها .

اذكر انني كنت مرة في احد أيام الربيع الجميلة ، منفرداً في
غابة أصغي الى حفيف الاشجار ، وافكر في أمر واحد طالما كان
شغلي الشاغل مدة عامين كامين ، - وهو وجود الله .

فقلت في نفسي : - « حسن وجميل ليس اله . وليس من
شيء في الوجود سوى شعوري . ولا يوجد في العالم شيء ذو وجود
حقيقي الا حياتي ، لا يوجد شيء من ذلك البته . وما من قوة أو
أعجوبة تستطيع ان تبرهن وجود شيء من هذا ، لان العجائب
لا وجود لها الا في خيال السقيمي العقول . »

ثم سألت نفسي ثانية : « ولكن من اين لي هذا الشعور الذي
يعمل في قلبي ويحملني الى التفتيش عن الله ؟ »

قد جدد هذا الفكر الاخير ما مات من ايماني ، وبدد غيوم
اليأس من سماء حياتي ، فشعرت ثانية بهجة الحياة . ولكن هذه
البهجة لم تلبث ان زالت في وقت قصير . لان فكري عاد الى عمله
بسائلتي قائلاً : -

« ان هذا الشعور ، الذي يحملك الى التفتيش عن الله ليس
باله . لان مثل هذا الشعور يختلج في اعماقي ، وهو تحت سلطاني

فانا اظهره ، وانا احجبه كما اشاء . وأهوى . فهو ايس بالضالة التي
أنشدها ، الضالة انني لا أقدر أن أوجد بدونها . »

وهكذا ذوت الامل الجديدة في صدري ، وحلت في مكانها
الشكوك والخاوف ، فعاودني فكر الانتحار بقوة أشد من قبل .

فرجعت الى ما مضى من افكاري ، اخصها وقلبها ، وادرس
التقلبات التي طرأت على حياتي بين اليأس والرجاء فادركت بعد

الفحص ، انني لم اعش في ما مضى من عمري الا عندما كنت
أو من بالله . وكما كانت حالتي في الماضي هي الان : كلما آمنت بالله

أشعر بالحياة ، وكلما عرضت عن هذا الايمان أشعر انني ميت بالحقيقة .
فما هو هذا اليأس وهذا الرجاء بانني لا أعيش عندما أخسر

ايماني بوجود الله ؟ ولو لم يكن في اعماقي بقية رجاء بالاهتداء اليه ،
لكان يجب ان أقتل نفسي من عهد بعيد فحياتي الحقيقية والحالة

هذه ، مرتبطة بشعوري بوجوده ، وسعيي وراء الاهتداء اليه .
فما يجب ان افعله اذن ؟ ولكن صوتاً قوياً كان يصرخ في اعماقي

قائلاً : « ان ما تنشده هو الكائن الذي لا قوام للحياة بدونه .
فالحياة ومعرفة الله واحد عند التحقيق . والله هو الحياة . »

عش لتسعي الى الله ، لان الحياة لا تكون بدون الله . بمثل
هذا آمنت اخيراً من اعماق قلبي ، فشعرت بقوة الحياة الحقيقية ،

ولم يفارقني هذا النور الذي اشرق على حياتي حتى اليوم .
هكذا تخلصت من الانتحار . ولكنني لم أعرف متى ، ولا

كيف تم هذا التغير العظيم في حياتي . فكما انني شعرت بياسي شيئاً فشيئاً ، وتدرجت من الشك البسيط ، الى الكفر بالحياة والاعتقاد بوجوب الانتحار ، هكذا عاد نور الحياة اليّ شيئاً فشيئاً بقوة ليست من عندي ، فانعش قلبي وأحييت آمالي

والعجب ان قوة الحياة هذه ، التي رجعت اليّ ، لم تكن غريبة عني . لاني عرفتُها في فجر شبابي ، وكان لها النفوذ الاول في حياتي فرجعت بالفكر الى الماضي البعيد ، الى أيام صبوتي وشبابي . رجعت الى الايمان بتلك الارادة التي اوجدتني في هذا الوجود وطلبت مني ان اقوم بعمل ما . رجعت الى الاعتقاد بان واجب الحياة ، وغايتها الاولى ، انما تقوم بسعي الانسان ليصير أفضل مما هو ويعمل ما هو عدل في شريعة هذه الارادة الكلية التي اوجدته . رجعت الى العقيدة القائلة بان هذه الارادة لا تظهر الا في الصلاح الذي اجمعت الانسانية على محبته والاهتداء به . او بعبارة اخرى ، رجعت الى الايمان بالله ، وبالكمال الادبي ، وبالتقليد الذي يمنح الحياة معناها الحقيقي . وانما الفرق بين حالتي الآن ، وحالي اذ ذاك ، انني في عهد صبوتي ، قبلت كل هذا بدون فهم ، ولكنني اقبله الآن عن ادراك صحيح ، وعقيدة ثابتة باني لا استطيع ان اعيش بدونها .

واتي لا اجد للتعبير عن حالتي افضل مما يأتي : قد شعرت ، بانني وجدت نفسي فجأة في مركب ، دفع الى عرض البحر ، من شاطئ

مجهول لدي ، بعد ان أعطيت التعليمات اللازمة للبلوغ للشاطئ
الآخر ، ووضع بين يدي العدد الكافي من المجاذيف التي مع اتني
لم أتعلم كيفية استعمالها كنت اجذف بها بكل قدرتي ولكنني كنت
كلما امعنت في السير الى قلب البحر ، ازداد طغيان الامواج علي
وقذفها بي خارج الخط المرسوم لسيري ، وقل اجتماعي بامثالي من
البحار ، الذين أبعدتهم الامواج عن الخطوط المرسومة لسيرهم مثلي .
هنالك كنت اجد ، في جهات مختلفة بحارة ، يعملون بجهد واجتهاد
في محاربة البحر ، والتغلب على امواجه بهمة لا تعرف اللال ،
لمتابعة سيرهم ، والبلوغ الى محبتهم ، كما كنت اجد أيضاً آخرين
غيرهم ممن استولى عليهم اليأس فخارت قواهم ، ورموا بمجاذيفهم ،
واستسلموا للامواج تسير بهم حيث شاءت . وكلما ابعدت في سيري ،
كنت اشتغل بمراقبة ما يجري حوالي فانسى المحافظة على الخطوة
المرسومة لي . واخيراً ملأت التجذيف ، وضللت عن الخط المختص
بي ، فرميت بمجاذيفي . وكنت في اثناء ذلك اصغى الى احاديث
السائرين حولي ، ممن اقلعوا عن التجذيف يؤكدون لي اتني
واياهم نسير في السراط المستقيم . وهكذا سرت ، محمولا مع الامواج ،
الى ان بلغت مكانا احاط بي اليأس فيه من كل جهة ، وتعالى
المياه حوالي حتى خيل الي أنى سائر الى حتفى لا محالة . حينئذ
ذكرت المجاذيف ، وذكرت الخط المرسوم لسيري ، والشاطئ
الذى امرت ان اذهب اليه فعمدت الى مجاذيفي احركها بهمة

ونشاط ، سائراً في الخط المرسوم لي نحو الشاطئ .
فالشاطئ ، الذي سرت اليه هو الله والخط الذي تبعته هو
التقليد ، والمجازيف هي حرية الارادة التي اعطيتها لتسير بي الى
الديناء الهادي ، حيث اجد وحدتي مع الله .

الفصل الثالث عشر

وهكذا تجددت القوة في اعماقي ، فبدأت اعيش من جديد .
فانكرت على ابناء طبقتي حياتهم ، لاتي ادركت انها ليست بالحياة
الحق ، وليكنها خيال للحياة ، لان ما فيها من الانغماس في حمأة
التنعم يحول دون ادراك معنى الحياة . وشعرت في اعماق قاي ،
انني لكي افهم معنى الحياة الحقيقي ، لا يكفيني درس حياة الطبقات
المتنازة التي هي اشبه بالحشرات العائشة على اجسام غيرها ، بل
يجب ان ادرس حياة طبقات العمال البسيطة ، الحياة التي تصنع حياة
للعالم وتهبها معنى سامياً مقبولا من عامة الشعب . والعمال البسطاء
الذين كانوا حولي هم الشعب الروسي ، الذي رجعت اليه انشد معنى
الحياة بين صفوفه .

واذا كان في منالي ان اعبر عن هذا المعنى فهو كما يأتي :
ولد الانسان في هذا العالم بارادة الله الذي خلق كل انسان
بصورة حرة تمكنه ان يخلص نفسه أو يهلكها كما يشاء ويريد .
والغاية الاولى من وجود حياة الانسان منحصرة في خلاص نفسه .

وهو لا يستطيع ان يخلص نفسه الا بالعمل بكلمة الله . والعمل بكلمة الله يقضي عليه أن يعرض عن جميع ملذات الحياة ، ويعمل بنشاط ، ويتضع ، ويحتمل ، ويكون وديماً بروحه وفكره . هذا هو معنى نظام الايمان بكامله في عقيدة الشعب ، وقد قبله الشعب عن يد رعاة الكنيسة ، الذين احتفظوا به على مر الاجيال بواسطة التقاليد المحترمة من جميعهم .

وقد كان هذا المعنى واضحاً لي ، عزيزاً على قلبي . وهذا الايمان العام ، الثابت في قلوب الجماعات التي التجأت اليها اخيراً ، كانت تقيده لسوء الحظ ، قيود بعيدة عن الادراك والتفسير بهذا المقدار حتى انها ارجعت الثورة والتمرد الى قلبي : وهي الاسرار والفروض الكنائسية ، والصيام ، والسجود امام الرفات المقدسة . والصور المختلفة . فالشعب السادج لم يكن قادراً ان يفصل بين هذه الفروض وبين الايمان ، وأنا صرت مثله عاجزاً عن الاقدام على مثل هذا الفعل . ومع ان ايمان الشعب البسيط ، كان يمازجه اشياء كثيرة غريبة على ادراكي وفهمي ، فاني كنت اقبل كل شيء ، فاذهب الى جميع الاحتفالات الكنائسية ، واصلي في الصباح وفي المساء واصوم ، واعد نفسي ، بالتقشف والامساك ، لمناولة الاسرار الالهية ، والعجيب انني لم اجد من عقلي معارضاً تجاه قياحي بجميع هذه الفروض ، فما كان يدولي في ماضى مستحيلاً صار امراً بسيطاً ممكناً .

ان المركز الذي اتخذته لنفسى في الماضي تجاه قضايا الايمان قد تغير بكامله . فقد اعتقدت قبلا ان الحياة ممتلئة بالمعاني السامية ، أما الايمان فكان يظهر لي انه ادعاء فارغ للتوفيق بين قضايا متعددة لا شأن للحياة بها . وقد جربت مرة ان اجد لهذه القضايا معنى فلم افلح ، ولذلك تركتها واعرضت عنها . أما الآن فانا واثق بان حياتى لا معنى لها البتة ، ولا يمكن ان يكون لها معنى بذاته ، ولكن قضايا الايمان التي لم يكن لها اهمية في نظري قبلا قد اظهر لي الاختبار انها ، دون غيرها ، القوات الحقيقية في الوجود التي تمنح الحياة معناها الاسمى . كنت اعتقد قبلا ان هذه القضايا جميعها تافهة ، بليدة ، لم تخلق الا للبسطاء والجهلاء ، اما اليوم ، فمع انني لا ادرك معناها ، فانا اعتقد انها ذات معنى عظيم يجب ان اسعى الى درسه وفهمه

لأجل ذلك كنت افكر قائلا : —

« ان الايمان ينبع ، كالانسان وفكره ، من العلة السريّة الاولى . وهذه العلة الاولى هي الله ، علة وجود جسد الانسان وعقله . وكما ان جسدي انبثق ، بالتسلسل المتواصل من الله اليّ ، كذلك عقلي واعتقادي بالحياة خرجا منه تعالى ، ولأجل هذا فان درجات هذا النمو التدريجي ، الذي انا ثمرة الاخيرة ، لا يمكن ان تكون كاذبة . كل ما يؤمن به الانسان باخلاص يجب ان يكون حقيقياً ومع اننا نستطيع ان نعبر عنه بطرائق مختلفة ، فهو واحد في

جميع الحالات ، ولا يمكن ان يكون كاذباً . فاذا خيل اليّ في بعض الاحيان انه غير ذلك ، فلا يكون هذا بالدليل على كذبه ، بل هو اصدق برهان على ضعف ادراكي لحقيقته
حينئذ قلت لنفسي :

« ينحصر الواجب الاول ، لكل ايمان صحيح ، في أن يهب الحياة معنى لا يستطيع الموت أن يذهب به . وانه لطبيعي ان الايمان لكي يجابو على سؤال الملك المحتضر في قصره بين الثروة والعظمة أو العامل المستعبد الفقير ، أو الطفل الذي لا يعرف كيف يفكر أو الحكيم الطاعن في السن ، أو الشيخ الذي ، أو المرأة السعيدة الممتلئة باهواء الشباب ، أو جميع ابناء الانسان على اختلاف مراكزهم وادراكهم ، - انه لا امر طبيعي وبسيط ، اذا كان هنالك جواب واحد في قاموس الايمان على السؤال الابدي الواحد المتكرر في كل يوم بافواه جميع الناس : « لماذا اعيش ؟ وما هو مصير حياتي ؟ » فالجواب ، وان كان واحداً بجوهره وحقيقته ، فانه يتنوع بمظاهره تنوعاً لا حد له وهذا التنوع ، وان ظهر غريباً ، فهو ضروري ، بالنسبة الى حالة كل رجل وكل امرأة أمام الشمس من الذين يهمهم معرفة مصيرهم ومعنى حياتهم . »

ولكن هذه التأملات والافكار ، التي تبرز غرابة ما في الايمان من المظاهر الطفلية ، لم تكن كافية لاقتناعي على ان لي الحق في قضية كقضايا الايمان التي اصبحت شغلي الشاغل في الحياة ، ان اتخذ

لنفسى صفة عاملة في موضوع لا تزال شكوكى كثيرة أمامه . فقد
رغبت ، بجماع قوة نفسى ، ان اتحد مع الشعب ، مؤمناً بكل ما يؤمنون
به ، ولكنتى لم أجد سبيلى الى ذلك . لآتى شعرت ان قيامى بمثل
هذا العمل يحملنى الى الكذب على نفسى ، والهزء بما كنت اقدسه
وأجله .

عند هذه النقطة الهامة من الموضوع اقبل الى مساعدتى احداث
المفكرين من اللاهوتيين الروسين

وفي رأى هؤلاء العلماء المحترمين ان عقيدة الايمان الاساسية
تتخصر في عصمة الكنيسة . وقبول هذه العقيدة يؤدي بصاحبه
الى التسليم بصواب جميع التعاليم التى تعلمها الكنيسة . فالكنيسة
التي هي جماعة المؤمنين ، المتحدين برباط المحبة ، والمالكين ناصية
المعرفة الحقيقية . اصبحت بعدئذ أساساً لايماني . فقلت في نفسى
« ان الحقيقة المقدسة لا يمكن ان يبالغ اليها رجل واحد . ولكن
الوصول الى قدس اقداسها مباح لجماعة المؤمنين المتحدين بالمحبة ولذلك
وجب علينا قبل الحصول على الحقيقة الانسير . كل في طريقه . بل
ان نتحد بعضنا مع بعض . محتملين بعضنا بعضاً ، ومتجنبين كل
ما يعمل على شقاقنا وتباعدا . فالحقيقة تعان لنا ذاتها بالمحبة فاذا لم
نطع أوامر الكنيسة فنحن تقتل المحبة نفسها ، التي لا تظهر الحقيقة
بدونها . واذا قتلت المحبة خسرتنا جميعاً الوسيلة الواحدة للحصول
على معرفة الحق . »

على انني لم استطع في ذلك الوقت ان ارى السفسطة التي في هذا النوع من التفكير المنطقي . لم أر اذ ذاك ان الاتحاد بواسطة المحبة قد ينشيء محبة عظمى . ولكنه لا يقدر أن يعطي الناس الحقيقة المقدسة المقررة في كلمات دستور ايمان نيقية ، ولم أر اذ ذاك ان المحبة وحدها لا يمكن ان تقيد المؤمنين بالعمل بأي عقيدة من العقائد . انني لم أر اذ ذاك الخطأ الذي في هذه العقيدة . وانا شاكر عدم رؤيتي وفهمي في ذلك العهد : لانني بسببها تمكنت من قبول جميع طقوس الكنيسة وممارستها ، من غير ان افهم اكثريتها . فقد طالما جاهدت في ذلك الحين ان اتجنب كل نوع من البحث في مثل هذه المواضيع . وابتعدت جهدي عن الاعتراضات . ووقفت كل قوة فكرى على تفسير عقائد الكنيسة بطريقة لا تثير ما كمن في أعماقي من الشكوك الكثيرة .

وفيما أنا على هذه الحال من الخضوع لاوامر الكنيسة كنت اخضع فكري أيضاً لجميع التقاليد المرعية الاجراء بين عامة الشعب الذي اعيش معه . فاتحدت نفسي مع اسلافي الذين احببتهم . وهم أبي وأمي وجدى وجدتي . فقد عاشوا جميعهم كما عاش اسلافهم . وآمنوا . وكانوا سبباً لوجودي على الارض . وكنت أشارك ملايين الشعب . الذي احترمه واحبه . . بعبادته التي هي رجاؤه الوحيد في الحياة . قد فعلت كل هذا ولم أجد فيه شيئاً رديئاً . لان الردى . في عقيدتي هو الاستسلام لشهوات الجسد . وعند ما كنت انفض

من فراشي عند الصباح لحضور الصلاة كنت اشعر انني أقوم بعمل صالح . واثقاً بأنه ان لم يكن لي من هذا العمل سوى كبح جماح كبريائي العقلية في سبيل الاتحاد مع اسلافي ومعاصري لكنفي به تعزية لي . وفي سبيل التفتيش عن معنى في حياتي لم اكن بتضحية رفاهية جسدي .

بمثل هذا كنت أفكر ايضاً وأنا أعد نفسي لمناولة الاسرار المقدسة ومطالعة الكتب المقدسة ، والصلاة ، والتشف ، والمحافظة على الصيامات . ومع تفاهة هذه التضحيات التي كنت أقوم بها فقد فعلتها كلها من أجل غاية مقدسة . فكنت أهيم نفسي بالامساك والصلاة لمناولة جسد الرب ، أصوم ، وأقوم بفروض الصلاة في أوقاتها ، سواء في بيتي أو في الكنيسة . وعند ما كنت أصغي الى الصلوات في الكنيسة كنت أرافق القراء والمرنمين في كل كلمة . وأفسرها في ذهني بمعنى سام كلما وجدت الى ذلك سبيلاً ، أما الكلمات التي كانت تخاب لي في القداس بنوع خاص ، فأنزها أشرف مركز من الاهمية في قلبي ، فهي كما يأتي :

« لنحب بعضنا بعضاً بعزم واحد . » وأما الكلمات التي كانت تتبع هذه ، وهي الاعتراف باب وابن وروح قدس ، فكنت أعرض عنها لأنني لم أستطع أن أفهمها .

الفصل الرابع عشر

كان الايمان في ذلك العهد ضرورياً جداً لحياتي ، حتى انني أبعدت عن فكري كل أثر للشك او الاعتراض على عقائد الكنيسة . ولكن هذا التفسير للفروض والطقوس لم يكن ليعمر طويلاً في فكري . لان خدمة القديس ، مع انها كانت تزداد وضوحاً في عيني في كل يوم بمبادئها الاساسية ، ومع انني كنت أبذل جهدي في تفسير مثل العبارة الآتية بصورة تبعد الثورة عن فكري — « بعد ذكرنا الكلية القداسة الطاهرة الفاتكة البركات المجيدة سيدتنا والدة الاله الدائمة البتولية مريم ، لنودع ذواتنا وبعضنا بعضاً وكل حياتنا المسيح الاله . » ومع انني كنت أفسر كثرة صلاة الكنيسة للقيصر وعيائه بأنهم معرضون للتجربة اكثر من الجميع . ولذلك كانوا في حاجة الى الصلاة اكثر من الجميع . ومع انني كنت أفسر الصلاة : « من أجل اخضاع كل عدو ومحارب تحت اقدامهم ... » بأنها صلاة تطلب الغلبة من الله على زعماء الشر . مع انني فعلت كل ذلك للاحتفاظ بايماني . ولكن هذه الصلوات وغيرها . مثل تسبحة الشاروين . وجميع الاسرار المحيطة بالخبز والخمر . وعبادة العذراء والقديسين . أو بعبارة أخرى ثلثي الخدمة التي تتلى في القديس . أما انها كانت تظل اسراراً مغلقة لا تفسرها عندي . أو انها كانت تحملي الى العودة الى شكوكي القديمة . والاعتقاد بأنها خرافات

باطلة . أما تسليمي بها فكان بحكم الضرورة يقودني الى الكذب الذي يفصلني عن الله ويقضي على ايماني بأسره .

ولم يكن موقفي تجاه الاعياد الرسمية في الكنيسة بافضل من موقفي تجاه الصلوات المار ذكرها . فالمحافظة على السبت بتكريس يوم واحد في الاسبوع للاتحاد مع الله لم تكن بعيدة عن ادراكي كان العيد الاعظم لتذكّر القيامة التي لم اقدر ان اتصور حقيقتها ولم استطع ان افهمها . وقد خصص يوم الاحد من كل اسبوع بهذا العيد العظيم . وكان الاحتفال بخدمة سر الشكر يقام فيه ، ولكن هذا السر لم يكن ايدنو من حدود تصوري . أما الاعياد الاثنا عشر الاخرى ، بقطع النظر عن عيد الميلاد فقد كانت جميعها تذكارا للعجائب التي كنت ابذل جهدي في ابعاد فكري عن البحث فيها . لثلا اسقط في هاوية النكران . وأهم هذه العجائب الصعود ، وحلول الروح القدس يوم الخميس ، والعماد ، وشفاعة العذراء وغيرها .

في جميع هذه الاعياد كنت اشعر بان الالهية قد اعطيت لقل الحوادث اهمية فائسك . أما بالتفسيراتي تهديء حدة ثورتي الفكرية بالاكثر . أو انني اغمض عيني فلا ارى ما يحملني الى الشك ويحرمني راحتي .

ولكن هذا الشعور كان يزايد في اعماقي كلما حضرت في حفلة عماد أو حفلة مناولة ما . وهما السران الكبيران المحترمان بالدرجة الاولى من جميع المؤمنين . فما كنت اراه في هاتين الحالتين لم يكن

بعيدا عن الادراك . أو فائقا للعقل . بل كان ظاهراً واضحاً أمام عيني انه وهم أكثر منه حقيقة : ولذلك كنت أجد نفسي بين هاويتين : - اما الكذب أو الانكار

ان انسى ماحييت الآلام التي شعرت بها في اعماق قلبي عندما تناولت القربان المقدس للمرة الاولى . بعد ان تركته أعواماً عديدة فالخدمة والاعتراف . والصلاة كل هذا فهمته وفرحت به لانه فسح لي فرصة جميلة لادراك معنى الحياة . وقد فسرت هذا العمل انفي انه تذكاري يعيد فكري الى المسيح . ويعدني للتطهير من الخطيئة . واقتبال تعاليم المسيح بكلية قلبي . وهذا التفسير . سواء كان حقيقياً أو مصطنعاً فانه لم يزعجني قط . لانني كنت سعيداً جداً ان اوضح ذاتي . واتقدم بقلب منكسر الى كرسي الاعتراف . حيث يقبل اعترافي كاهن بسيط . وديع . ويشهد على توبتي وطرح أحمال الخطيئة عن كاهل نفسي . نعم كنت اشعر بسعادة عظيمة وانا اتحد بالروح مع آباء الكنيسة الودعاء الذين وضعوا صلواتها الساذجة السعادة التي شاركني فيها على مر الاجيال الذين آمنوا ويؤمنون من اعماق قلوبهم ولذلك لم أجد في عملي شيئاً ينفّر منه فكري .

ولكنني عندما تقدمت الى « الباب الملوكي » وطلب الى الكاهن ان اكرر اعترافي . بان ما انا عازم ان اكلمه هو نفس جسد المسيح ودمه . شعرت بان قلبي يتمزق في احشائي . لان هذا الطلب على بساطته . كان عظيماً جداً على رجل مثلي لم يعرف الايمان سبيله الى قلبه .

انني أقول الآن ان هذا الطالب كان هائلا في نظري ولكنني لم انظر اليه مثل هذه النظرة في ذلك الوقت. لان الالم الذي احده في قلبي كان داخليا لا يعبر عنه بالالفاظ. لم يكن لي في ذلك الوقت المركز الذي كان لي في صبوتي عندما كان كل ما في الحياة واضحا في عيني. بل انما جذبني الى الايمان اليأس الذي تولاني بعد فشلي عن الاهتداء الى شيء حقيقي في الحياة بدون الايمان. واذ لم أقدر أن اعرض عن كنزى الجديد لذلك خضعت وسلمت. وقد ساعدني على هذا الخضوع شعور اهتديت اليه في نفسي. شعور بوجود احتقار الذات والامانة لاجل هذا احتقرت نفسي. واتضعت بفكرى. واكثرت الجسد والدم. من غير أن افكر في أقل ما يحملني الى الهزء أو الشك. ولكن هذا كله لم ينقذني من تأثير الشعور الذي كان يؤلمني في أعماقي ولذلك لم اقدم على مثل هذا العمل مرة ثانية.

بيد انني واظبت على المحافظة على طقوس الكنيسة، ولا ازال اؤمن من أعماق قلبي ان الطقوس التي حافظت عليها كانت تمثل الحقيقة تمثيلا جميلا. ولكنه حدث لي اذ ذاك ما هو الآن واضح في عيني ولكنه لم يكن واضحا في حينه.

كنت مرة اصغي الى محاضرة القاها راهب من الرسلين الاميين. فتكلم عن الله، والايمان، والحياة، والخلاص، ففتح لي بكلامه بابا للولوج الى معرفة حقيقة الايمان.

وكننت أسير بين الناس دارساً آرائهم في الحياة والايّمان ،
فتزداد الحقيقة وضوحاً وظهوراً أمام فكري . مثل هذا حدث لي
ايضاً عندما قرأت اخبار الشهداء ، وسير القديسين ، وخطبهم ،
ومواعظهم ، ولذلك احببت هذه الكتب كلها واتخذتها رفيقة ملازمة
لحياتي . وكان كل ما في هذه الكتب ، ما عدا العجائب المدونة فيها
يعلم . لي بصورة جلية حقيقة معنى الحياة . هنالك قرأت حياة
مكار يوس العظيم ، والامير اوساف (قصة بوذا) ومواعظ القديس
يوحنا الذهبي الفم ، وقصة المسافر الذي نزل الى البئر ، ابو الراهب
الذي وجد الذهب ، وبطرس العشار . وفي هذه الكتب اطلعت على
تاريخ الشهداء ، الذين شهدوا باجمعهم أن الحياة لا تنتهي بالموت ،
وفيه قرأت سير الرجال البسطاء الذين لم يعرفوا شيئاً عن
عقائد الكنيسة .

ولكنني لم أشرع في الاختلاط مع المتعلمين من المؤمنين ، او في
مطالعة كتبهم حتى عاودتني شكوكي ، ورجع الي تمردي واضطرابي
فشعرت اني كلما حادثتهم ، او قرأت مؤلفاتهم ، يزداد بعدي عن
الحقيقة ودنوي من هوة اليأس والشقاء .

الفصل الخامس عشر

كثيراً ما كنت أحسد الذين لا يقرأون ولا يكتبون
من الرهبان الهائمين والمسافرين من مكان الى آخر ، واغبطهم لانهم

لم يتعلموا فان عقائد الايمان ، التي كانت في نظري خرافة مضحكة لم يكن فيها أقل خطأ في نظرهم . ولذلك كانوا قادرين ، بل السهولة على قبولها باجمعها ، والايمان بنفس الحقيقة التي كنت انا أو من بها أما انا ، للتعلم الشقي ، فكنت أعتقد ان الحقيقة التي أعبدتها قد ربطت بخيوط رفيعة جداً من الخرافة والضلال ، ولذلك لم استطع ان أقبلها بتلك الصورة .

على هذه الحالة عشت ثلاث سنوات وعندما بدأت ، كمن ارتد حديثاً من الكفر الى الايمان ، أدنو من الحق شيئاً فشيئاً ، واتقرب بقوة الغريزة الداخلية متلمساً طريقى الى النور ، لم تكن هذه العقبات لتثنيني عن عزمي . وكما كنت أفشل عن ادراك شيء مما أراه كنت أقول في نفسي : « أنا خاطيء وشرير ، والذنب في عدم أدراكي هو ذنبي دون سواي . » ولكن نموي في معرفة روح الحق الذي كنت أدرسه كان يقوي بصيرتي لارى ان هذه الروح هي أساس لا يقوم صرح الحياة بدونه وان هذه العقبات الموضوعة أمامها تحول الناس عن الحق ، وتبالغ في فصل ما أدركه عما لا أدركه . ولكن ما لم أستطع ان أفهمه بعقلي كنت أفهمه بواسطة الكذب على نفسي وعلى رغم كل شكوكي وآلامي ما زلت متمسكا بالارثوذكسية ولكن آرائى أثارت قضايا جديدة ، وحب البحث فيها والحكم بخطأها أو صوابها بصورة رسمية من الكنيسة . والقرار الذي أصدرته الكنيسة أخيراً في هذه القضايا ، القرار الذي جاء

مخالفاً للإيمان الذي كنت أعيش به ، اضطرني أخيراً ان أعرض
عن كل شركة معها .

واول هذه القضايا التي اوجبت انفصالي هي علاقة الكنيسة
الارثوذكسية مع بقية الكنائس المسيحية : كالكنيسة الكاثوليكية ،
والكنائس المعروفة باسم المنشقين . فان شغفي العظيم بالإيمان
المسيحي في ذلك العهد قادني الى التعرف باساتذة كثيرين ، من
طوائف متعددة ، كالكاثوليك والبروتستانت ، والمؤمنين التقدماء
وشاربي الحليب ، (الذين لا يؤمنون بالصيام) ، وغيرهم ، وقد
وجدت بينهم كثيرين من المؤمنين الخالصين في إيمانهم ، العائشين
بموجب اسمى التعاليم الادبية . فرغبت بكليتي في ان اكون اخاً
لهؤلاء الرجال ، ولكن ماذا كانت النتيجة ؟

ان العقائد التي خيل اليّ انها تعديني بوحدة جميع الناس بإيمان
واحد ، ومحبة واحدة ، هذه العقائد ، بشخص افضل ممثليها
واعظمهم ، أخبرتني ان جميع هؤلاء الناس يعيشون في الكذب
والضلال ، وان مقدرتهم على الحياة انما هي مستمدة من تجربة الشيطان ،
واننا نحن وحدنا قادرون دون جميع الناس على معرفة الحق .

ومما رأيته في درسي ان اعضاء الكنيسة الارثوذكسية في
بلادني يعتبرون جميع الذين لا يعترفون بإيمانهم هرطقة ، كما ان
الكاثوليك وغيرهم من الطوائف المسيحية ينظرون الى عقيدتنا
الارثوذكسية نظرهم الى هرطقة ورأيت أيضاً ان الارثوذكسية

تعتبر جميع الذين لا يحافظون على نفس الطقوس الخارجية، والفرائض المتعلقة بالايمان كما تحافظ هي عليها، تعتبر جميع هؤلاء اعداء لها، وان رغب بعض ابنائها في اخفاء هذه الحقيقة احياناً. ولكن هذه الحقيقة ظاهرة: اولاً لان ادعائي انك تعيش في الكذب، واني انا دونك اعيش في الحق، هو اعظم اهانة يستطيع الانسان ان يوجهها الى اخيه الانسان، ثانياً، لان الرجل الذي يحب اولاده واخوته لا يستطيع ان يتعمى عن عداوة الذين يسعون الى رد اخوته واولاده من الحق الى الكذب. وفوق هذا فان هذه العداوة تزداد كلما تعمق الانسان في درس العقائد الخصوصية التي يتمسك بها كل فريق. ولذلك وجدت نفسي، وأنا الرجل الذي يعتقد من صميم قلبه بان الايمان لا يوجد الا في المحبة المتبادلة المتحدة، نعم وجدتني مضطراً على رغي ان ارى ان عقائد الايمان تعطل الغاية الوحيدة التي يجب ان نحياها وتنعشها،

وانما تظهر هذه العداوة بانهم وضوح لمن يعيش مثلنا في بلاد تعددت مذاهبها، ويرى الاحتقار المعيب، وسوء المعاملة، والاضطهاد، الذي يوجهه الكاثوليك للبروتستانت، والارثوذكس، فيقابله الارثوذكس بافزع منه للكاثوليك والبروتستانت، ثم لا يبرح الاخرون ان ينتقموا من الاثنين معاً بشر من فعلهم. ومثل هذا يتناول في الغالب في بقية المذاهب الاخرى.

كل هذه الحوادث نزعنا لاول وهلة فلا نصدقها ولذلك
نسأل ذواتنا ما يأتي :

« لا يمكن ان يكون الامر شديداً لهذه الدرجة ومع هذا فان
هؤلاء الرجال لم يعرفوا بعد انه اذا تناقضت قضيتان فانه يستحيل
ان يكون في جانب كل منهما الحق الذي يجب ان يبنى عليه الايمان .
ولا شك ان هنالك سبباً لهذا ومنه تتضح الحقيقة »

قد خطر لي مثل هذا في بداية الامر ، ولذلك عمدت الى
مطالعة كل ما كتب في الموضوع وفاوضت جميع العلماء الذين
استطعت مفاوضتهم ، ولكن النتيجة الاخيرة التي وصلت اليها
تعبّر عنها كلمات قليلة : « كل يغني على ليله . »

فقد اخبرني نخبة رجال الدين ، من جميع الطوائف والملل ،
ان ديانة كل منهم هي الحقيقة وديانة الاخرين ضلال مبين ، وان
كل ما يقدر ان يصنعوه مع غير التابعين لديانتهم ينحصر في
الصلاة من اجل ارتدادهم من الضلال الى الحق . ذهبت الى خيرة
العلماء ، من الاساقفة ، والكهنة ، والمتقدمين في الرتب الدينية ،
والرهبان والنسك وسألتهم : ولكنني لم اجد بينهم من يستطيع ان
يفسر لي الداعي لهذه العداوة . ولكن رجلاً واحداً من بين الجميع
اوضح لي كل شيء . فكان ايضاحه كافياً لحلي على عدم تقديم مثل
هذا السؤال لاحد غيره .

ان السؤال الذي يواجهه كل كافر . او بالحري غير مؤمن ،

يرتد الى الايمان اليوم ، (وفي عقيدتي ان جميع النشء الحديث داخل في هذا الصف) ، هو : لماذا يوجد الحق في الكنيسة الارثوذكسية مثلاً ولا يوجد في الكنيسة اللوثرية أو الكاثوليكية ؟ لان الغير المؤمن يتعلم في مدرسته ، ولا يستطيع الا ان يعرف ما يجمله الفلاح الساذج ، ان البروتستانت والكاثوليك يؤيدون ايمانهم ويؤكدون انه هو الايمان الحقيقي وحده .

البراهين التاريخية التي تصبغها كل طائفة بصبغتها الرسمية ، لا يمكن ان تكون مرجعاً للحكم بين الطوائف . أفليس من الممكن والحالة هذه ان تنشأ معرفة سامية من اضمحلال هذه الفروق التي تضمحل شيئاً فشيئاً في اذهان المؤمنين الخالصين ؟ افلا تقدر ان تسير مع المؤمنين القدماء على نفس الطريق التي بدأنا سيرنا عليها معاً ؟ فهم يثبتون لنا ان الطريقة التي نرسم بها الصليب على وجوهنا ، ونزعم بها تسبحة هلاويا ، ونمشي بها حول المذبح ليست كطريقتهم . ونحن نقول لهم : « انتم تؤمنون بدستور الايمان النيقاوي ، وبالاسرار السبعة . ونحن أيضاً نؤمن بها فاحفظوا بهذا كله . وما تبقى فلكم ان تتصرفوا به كما تشاؤون .

حينئذ نستطيع ان نتحد معهم على هذه الصورة : اننا معاً نقدم المزمع من قضايا الايمان على غير المزمع . وأيضاً اقول الا نستطيع ان نقول للكاثوليك ؟

« انتم تؤمنون بهذا ، وبذاك ، وبين ما تؤمنون به قضايا

جوهريّة هامة . اما القضايا التي يقوم عليها الخلاف مثل انبثاق الروح القدس ، وعصمة البابا فافعلوا بها ما تشاؤون . »
الا نستطيع ان نقول مثل هذا للبروتستنتي ونبتحد معه في القضايا الجوهرية ؟

وقد وافق على هذا نخبة من رجال الدين الذين فاوضتهم في الامر ، ولكنهم زادوا على موافقتهم قولهم : « ان مثل هذه الآراء تحمل الناس على القول بان الاكليروس قد انفصلوا عن ايمان اباثهم وانضموا الى الانشقاق في حين ان مركز الجالسين على الكرامي في الكنيسة يقضي عليهم بالمحافظة على نقاوة ايمان الكنيسة الارثوذكسية الروسية كما تسلمته من اسلافنا القديماء . »

حينئذ ادركت جليلة الامر . انا افتش عن الايمان الذي هو عكاز الحياة وقوتها ، ولكن هؤلاء الناس يفتشون عن خير الوسائل التي تمكنهم من القيام بواجبات بشرية (يبيضون فيها وجوههم) امام الشعب ويحفظون سلطانهم وسيادتهم على الناس . ومنهما اكثروا من الكلام في اظهار شفقتهم على اغلاط اخوانهم ، والصلاة من اجلهم امام عرش الله لكي يردم ويهديهم ، فان مصالح الناس لا تقوم الا بالقوة ، ولذلك كانت القوة ، وهي الآن وستظل في المستقبل ، آلة في يد الاسياد للبلوغ الى ما يريدون .

اذا كان لنا طائفتان واعتقدت كل منهما ان الحق في جانبها . وان ايمان الاخرى كاذب ، فها تعلمان كل واحدة عقائدها رجاء

ان ترد اليها اخوتها الاخرين الى الحق . واذا تجاسر احد ان يعلم عقائد كاذبة لا بناء الكنيسة الغير المجريين في العالم ، الثابتين في معتقدهم القديم ، فان هذه الكنيسة تجدد نفسها مضطرة الى حرق الكتب المحتوية على العقائد الجديدة ونفي الرجل الذي افسد اذهان ابنائها . ماذا يجب ان يعمل بالرجل الهرطوقي ، الذي اندفع بغيرته على ايمانه الى تعليم شبيهة الكنيسة الاخرى وحكمت عليه انه مفسد لاذهان ابنائها ؟

ما الذي يستحقه مثل هذا الرجل غير ان يقطع رأسه او يودع في السجن ؟ كان الناس في ايام الكيس ميخايلوفتش يحرقون بالنار ، او بعبارة اخرى كان قصاصهم صارماً فظيماً بسبب ايمانهم المخالف لايمان الملك . ومثل هؤلاء لا يزالون معرضين للاضطهاد والقصاص الصارم المعروف اليوم وهو النفي المؤبد . وعندما نظرت حوالي ورأيت كل ما كان يجري باسم الدين من الفظائع سرى الرعب في جميع مفاصلي ، ولذلك انسحبت من الكنيسة .

والنقطة الثانية التي كانت تربط علاقات الكنيسة بقضايا الحياة هي الصلة التي بين الكنيسة والحرب والقتل . فقد كانت روسيا في هذا العهد منخرطة في حرب ، وكان الروسيون ، باسم المحبة المسيحية ، يقتلون اخوتهم في الانسانية . ان عدم التفكير في هذا العمل الفظيع مستحيل علي . ومثله عدم التصريح بان القتل جريمة كبرى في نظر جميع الاديان . ولكن الناس على رغم هذه الحقيقة

كانوا يصلون في الكنائس من اجل نصر جيوشنا ، وزعماء الكنيسة كانوا يقبلون كل جرائم القتل هذه كأنها نتائج لا بد منها للمحافظة على الايمان . ولم يكن القتل في الحرب وحده مقبولا في الكنيسة ، بل كان قتل المتمردين والثائرين من الشبان على التقاليد الرثة البالية محرما في نظر اكثرية من عرفت من اعضاء الكنيسة ومعلميها ورهبانها ونساكها . ولذلك نظرت الى كل ما يجري حوالي من الحوادث الفظيعة التي كانت يقوم بها رجال يدعون المسيحية فارتعدت في أعماق قلبي .

الفصل السادس عشر

من ذلك الحين فارقتني شكوكي ، وثبت لدي ان ما رأيته في عقائد الايمان الذي أعتنقته لم يكن كله حقيقيا . ولو كان ما رأيته في عهد ايماني سابقا لهذا العهد ، اي لو رأيت كل هذا قبل ايماني لما ترددت على الحكم بخطاه كله ، ولكنني لا أستطيع ان أحكم حكما مثل هذا اليوم

كان الشعب بمجموعه يعرف الايمان ولم يكن هذا بالامر الذي يحتاج الى برهان ، لانهم لولا ايمانهم لما استطاعوا ان يعيشوا وكانت معرفة الايمان هذه مباحة لي أيضا ، لاني كنت أعيش بها وأشعر بقوتها ولكن هذه المعرفة نفسها لم تخلُ من الخطأ . قد عرفت هذا بنفسني

ولم أشك في صحته قط . وكل ما كان يحملني الى الثورة في ما مضى صار في نظري اليوم يدنو مني أوفر أشراقاً وهدوءاً من قبل . ومع اتني لم أعد أجد من الخطأ في ايمان الشعب بمقدار ما في ايمان زعماء الكنيسة فقد رأيت أخيراً ان غير الحقيقي في ايمان الشعب ممتزج بالحقيقي .

فمن اين اذن هذا الحق وهذا الضلال في ايمان الشعب ؟ انهما ولا شك قد وصلأ للشعب مما نسميه بالكنيسة . لان هذا الحق وهذا الضلال ممتزجان معاً في التقاليد المعروفة بالتقاليد والكتابات المقدسة .

ولذلك وجدتني مضطراً ، شئت أم أبيت ، ان أدرس هذه الكتابات والتقاليد درساً مستوفياً ، مما كنت أتجنبه وأخافه قبلاً . فاقبلت بكليتي أدرس علم اللاهوت ، الذي كنت طرحته عني قبل ذلك الوقت معتقداً بعدم فائدته ، ومحتقراً الذي يضيع أيامه بدرسه . فقد اعتقدت في ما مضى أن علم اللاهوت سخافة لا معنى لها ولا فائدة من درسها ، وكنت أعيش بين مظاهر الحياة الواضحة في عيني والممتلئة بالمعاني السامية في عقيدتي . ومع اتني الآن يجب أن أفرح بالاعراض عن مواضيع لا شأن للعقل الصحيح بدرسها ولكن هذا فوق طاقتي .

على هذا الاساس العقائدي ، أو على الاقل بمساعدته ، بنيت صرح تفسيري الوحيد والآخر لمعنى الحياة التي اهتديت اليها أخيراً

ومهما بدأ الامر غريباً على آرائى العقلية القديمة التي مارستها زمناً طويلاً فهو الرجاء الوحيد بالخلاص من الشقاء ولكي يكون هذا مفهوماً يجب أن يفحص بتدقيق وتحفظ مع أنه لا يمكن أن تكون نتيجته شبيهة بنتائج البحث العلمي . لان معرفتي للمواضيع الدينية والمباحث اللاهوتية تجعل ترقب البلوغ الى نتائج فيها شبيهة بنتائج المباحث العلمية أمراً مستحيلاً .

لاجل هذا لم أسمع الى تفسير كل شيء . لاتي عرفت أن تفسير الكل كان كبداية كل شيء مخفياً في قلب الغير المحدود ولكنني رغبت في بلوغ المحجة التي تبدأ عندها غير المدركات . ولكن رغبتني في ان يظل غير المدرك كما هو ، لم تكن نتيجة اضعف في القوة الفكرية او قصور في الادراك ، (لان القوة الفكرية التي ساعدتني على عملي كانت صحيحة سليمة وبدونها لم أقدر أن أفهم شيئاً) ، وانما كانت رغبتني هذه نتيجة لمعرفتي للحدود التي ينتهي عندها فكري . اجل رغبت من صميم قلبي في أن أدرس الامور بنفسني أصلاً الى غير المدرك فأرى وافهم أنه غير مدرك وأرجع عنه من تلقاء ذاتي ، وليس لان الرجوع ~~عن~~ ~~من~~ ~~أمانى~~ محتوم علي أن أعمل به من غير درس ولا بحث

وما لاشك فيه أن العقائد كانت تحتوي على الكثير مما هو حق ، ولكنها كانت أيضاً بدون أقل ريب تحتوي على الكثير مما هو غير حق . ولذلك رأيتني مضطراً أن أقش عما هو حق ،

وعما هو غير حق ، وأفصل أحدهما عن الآخر . وقد قمت بعملتي
بعد الدرس والتعب الكثير . أما ما وجدته من الحق وما وجدته
من غير الحق وغير ذلك من النتائج التي أوصلني درسي للدين
والعلوم اللاهوتية والعقائدية فقد دونته في كتاب خاص ليكون
جزءاً تابعاً لهذا الاعتراف فإذا وجدته العالم ذا قيمة نافعة للناس
فانه قد يطبع يوماً من الايام .

انتهى كتاب اعتراف تولستوي

تابع الكتب الموجودة في مكتبة العرب بالفجالة بمصر

رقم	عنوان الكتاب	عدد النسخ
١٠	حامان في عمان (عاصمة شرق الاردن) لخير الدين الزركلي	١٠
٥	علم النفس لحسين رمزي	٥
٥	كتابة الرسائل الغرامية تعريب محمد الجوهري	٥
١٠	كنز الحكماء في أسرار الارض والسماء في علم الفلك	١٠
٥	محاضرات الشيخ محمد الحضري في نقد كتاب الشعر الجاهلي لطفه حسين	٥
١٠	مشاهد العالم الجديد وهي رحلة فؤاد صروف الي اميركا	١٠
٥	مناظرات الاناشيد الوطنية لمنصور عوض الموسيقى الشهير	٥
٥	وقائع شاهين مرعي الشقي الشهير	٥
١٥	مفاخر الاجيال في سير أعاظم الرجال بالصور	١٥
١٥	آداب العصر في شعراء الشام والعراق ومصر بالصور	١٥
٤	معارضات قصيدة ياليل الصب (مقى غده) لعيسى المعلوف	٤
٢٠	شعراء السودان مزين بالصور لسعد مخايل	٢٠
١٠	خواطر نيازي تعريب ولي الدين يكن	١٠
٥	مجموعة خطب سعد زغلول الحديثة	٥
٥	أحاديث الشباب مقالات أدبية	٥
١٥	اختلال التوازن العالمي لجوستاف لوبون	١٥
١٥	الاباء والبنون لمخايل نعيمه	١٥
٨	السيارة (الاتوميل) يشرح جميع أجزائها وكيفية وعلم تسيير الاتومبيلات والمتوسكلات	٨
٢٥	خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال للانصاري	٢٥
٦	التمرين في تصريف الدويا	٦
٥	اسرار المراهقة بالفق للدكتور شخاشيري	٥
٥	أسرار المراهقة بالفتاة له ايضاً	٥
٨	التمرير المنزلي للدكتور غصن	٨
٥	عظماء الفراعنة	٥
١٠	حياة المسيح لجوفاني بابيني	١٠
٥	ثلاثة مفكرين في الدين	٥

تبايع الكتب الآتية في مكتبة العرب بالفعالة بمصر

٨	٧
النهج القويم في تاريخ شعوب الشرق القديم طبع بيروت	٦ تطورات الزراعة وارتقائها
٤ تربية الارانب بالصيف والشتاء	٣ الرقص المصري تعريفات عنه
٥ زراعة الكتان بمصر	٥ سعادة الشبان في طهارة الابدان
٨ تحرير المرأة لقاسم أمين	٥ في سبيل الاستقلال مصر وأنجلترا
٨ تهذيب الاخلاق لابن مسكويه	٢٠ مشهد البيان في حوادث سنة ١٨٦٠ بلبنان للدكتور مشاقة
٥ حديث القمر لمصطفى الرافعي	٣ نوادر الادباء
٦ الدروز والثورة السورية لكریم ثابت	١٥ هداية الاطفال لحسن توفيق
١٠ تذكرة الكاتب لاسعد داغر	٥ خواطر في التربية
٦٠ نزهة الجليس ومنية الاديب	٢٠ شرح ادب الدنيا والدين
الانيس وهي رحلة كبيرة في بلاد العرب للموسوي جزآن	١٢ طبع الاستانة
٣٠ قصة فيروز شاه ٤ مجلدات	كتاب الارواح لطنطاوي
٥ نوادر جحا الكبرى بالصور	جوهري
٦٠ كنز الرغائب في منتخبات الجواثب خمسة اجزاء تأليف احمد فارس الشدياق	٣٥ وقاء الوفاء في اخبار دار المصطفى جزآن
	١٢ الالفاظ الكتابية للمهمداني
	٤٠ قصة حمزة البهلوان اربعة اجزاء
	٤٠ قصة الملك سيف اربعة اجزاء
	٤٠ قصة الف ليلة وليلة اربعة اجزاء